غير مرخصة للطباعة

المحـور الثامـن

التَّاريخ والشخصيَّات الإسلاميَّة

١٣٨

نظرات في فكر الإمام المودودي

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة تجريبية

من الدستور الإلٰهي للبشرية

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

٥

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أسماء بنت يزيد، أنَّ النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخياركم**». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**الذين إذا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ تعالى**». رواه أحمد وابن ماجه.

عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: «**مثل أُمَّتي مثل المطر، لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أو آخرُه**». رواه أحمد والترمذي.

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد، رحمة الله للعالمين، وحامل هدايته للمؤمنين، ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وعلى آله وصحبه ومن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أمَّا بعد)

فهذه الصحائف كنتُ كتبتُها من قديم؛ طلب منِّي بعض تلاميذ الإمام أبي الأعلى المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد وفاته بسنة أنْ أكتب عن فِكْره وما له من تميُّز وخصائص وآثار، وقد بدأت الكتابة فيه وقتها، ولكنِّي لم أُكْمِله، ولم أُسَلِّمْه لهم، وبقي المكتوب عندي يحتاج إلى إتمام وتكملة، وطال العهد، حتَّى أذن الله لي أنْ أفْرُغ له بعضَ الشيء، وأُتِمَّه على ما أحبُّ ـ ما استطعت ـ فكانت هذه الرسالة الَّتي سمَّيْتها «**نظرات في فكر الإمام المودودي**».

ولا يرتاب مسلمٌ دارس في إمامة المودودي وعبقريَّته، في فكره الإسلامي الرحْب، الَّذي تناول فيه قضايا الإسلام، من تفسيرٍ ختم فيه

QaradawiBooks.com

القــرآن الكريم، ومن دراســةٍ للسُّــنَّة، وردٍّ على الَّذين زعموا أنفســهم قرآنيِّين، بدعوى أنَّهم يُهملون حديثَ رســول الله ﷺ، الَّذي روته الأُمَّة وخدمته وأقامت لخدمته تسعين عِلْمًا من علوم الحديث، وقامت مكتبةٌ ضخمةٌ لهذه العلوم، عكف عليها العلماء.

واشتغل الأستاذ المودودي بكلِّ القضايا الَّتي تهمُّ الأُمَّة المسلمة في كلِّ جوانب الحياة: حياة الفرد، وحياة الأســرة، وحياة المجتمع، وحياة الأُمَّة، وحياة الدولة، والعلاقــات بالعالَم كلِّه علــى اختلاف توجُّهاته، فكتب في: العقيــدة، والعبــادة، والأخــلاق، والتشــريع، والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، وكلِّ شــؤون الحياة، ونقد كلَّ المخالفين للرسالة الإسلاميَّة، والحضارة الإسلاميَّة، والشريعة الإسلاميَّة.

كان المودودي في كلِّ ما كتب الفــارس المغوار، والصارم البتَّار، يقول ما يعتقد، ويُعلن عمَّا يقتنع به ويؤمن بأنَّه الحقُّ، لا يخاف في الله لومةَ لائم، ولا صولةَ ظالم، مــن العِلمانيِّين أو المُقلِّدين أو المتغرِّبين أو الطاغين.

وفكره تقرؤه الأُمَّة كلُّها مــن أقصاها إلى أدناها، وقد قرأناه، أو قرأنا أكثره منذ كنَّا شــبابًا، وأُعْجِبنا به وبخصوبته، وأصالته وبروزه، وإن كُنَّا نُخالفه في بعض جزئيَّاتــه. وهذا ما يجب على المُفَكِّرين الإســلاميِّين الأحرار المخلصين، أنْ يأخذ بعضُهم من بعض، وألَّا يستنكف بعضُهم من نقد بعض، فالعصمة إنَّما هي لرســول الله ﷺ، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من كلامه ويُتْرَك إلَّا الرسول الكريم، فهو الَّذي لا ينطق عن الهوى.

ولا يفوتنــي أنْ أشــكر ابنَنا الحبيــبَ وأخانا الكريــم تلميذ الإمام أبي الأعلى المــودودي وتلميذنا الدكتور عبد الغفَّار عَزِيز، مدير قســم

QaradawiBooks.com

الشؤون الخارجيَّة في الجماعة الإسلاميَّة، الَّذي أرسلت إليه هذا البحث لقراءته، فأشـــار ببعض التعديلات اعتمدتُها، ودلَّنا على بعض المواضع من كتب الإمام، فشكر اللهُ له، ولكلِّ من ســـاهم في خدمة هذا الكتاب ونشره.

وها أنا أقدِّم هذه الرســـالة أو هذا الكتاب أو هـــذا الكُتَيِّب لإخواني وأبنائي عن فكر الإمام المودودي الإســـلاميِّ، ليتأمَّلوه ويدرسوه، عسى أن يجدوا فيه ما ينفعهم، أو يشفي غُلَّتهم، أو يردَّ على بعض تساؤلاتهم. وأختم بما قاله نبيُّ الله شُعَيْب: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

الدوحة في ٢٧ صفر ١٤٣٣هـ

٢١ يناير ٢٠١٢م

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

١
المودودي المُفَكِّر

يوجد في النَّاس أدباء يملكون ناصية التعبير، قادرون على التفنُّن في الأساليب، والتأثير في الأنفس، بالنثر المبدع، أو الشعر المطبوع.

ويوجد في النَّاس العلماء القادرون على التمحيص والتحقيق، والتمييز بين الراجح والمرجوح، وبين الصحيح والضعيف، وبين الصحيح والأصحِّ، بمقدرةٍ وجدارة.

ويوجد في النَّاس كذلك الدُّعاة الَّذين أوتوا القدرة على التأثير في الجماهير عن طريقَي: الخطابة باللسان، أو الكتابة بالقلم.

ولكن ليس كلُّ أديبٍ بارع، ولا كلُّ عالمٍ مُحقِّق، ولا كلُّ داعيةٍ مؤثِّر، محسوبًا بالضرورة في عداد المُفَكِّرين.

إنَّما المُفَكِّر من أوتي موهبة التأمُّل والتعمُّق، وكانت له رؤيةٌ خاصَّة، ورأيٌ مستقلٌّ في قضايا الإنسان الكبرى، غير مُقَلِّد لفلانٍ أو علَّان من النَّاس.

والمُفَكِّرون أنواع، فمنهم الإقليمي أو المَحَلِّي، والمُفَكِّر العالميُّ الإنساني، ومنهم المُفَكِّر الحُرُّ، الَّذي لا يتقيَّد بمبدأٍ، ولا يلتزم بفكرةٍ.

QaradawiBooks.com

ومنهم المُفَكِّر الملتزم بفلسفة عقليَّة معيَّنة يُفَكِّر في إطارها، ويدور حول محورها. ومن هنا نجد في عصرنا المُفَكِّر الماركسي، والمُفَكِّر الوجودي، والمُفَكِّر المسيحيَّ إلخ، كما نجد المُفَكِّرَ الإسلاميَّ.

وقد فقد عالمنا الإسلاميُّ في غُرَّة ذي القَعْدة سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٣ سبتمبر ١٩٧٩م مُفَكِّرًا إسلاميًّا عالَميًّا فذًّا، قلَّما يتكرَّر مثله في الأمم، ذلكم هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي، مُؤسِّس «الجماعة الإسلاميَّة» في شبه القارَّة الهنديَّة، وصاحب الكتب والرسائل الَّتي تُرْجِمَتْ إلى شتَّى اللُّغَات، وسرت مسرى النور في الكثير من الأقطار، وانتفع بها الألوف والملايين من أبناء الإسلام، ورجال الحركات الإسلاميَّة في الشرق والغرب، وكانت لهم سلاحًا في معركتهم الفِكْرِيَّة مع خصوم الإسلام في الداخل، وأعدائه في الخارج، كما كانت لهم مصابيح هداية في سلوكهم الحركيِّ.

كما أثارت هذه الآثارُ الفِكْرِيَّة ـ على الجانب المقابل ـ حركةَ انتقادٍ من قِبَل أفرادٍ وجماعاتٍ هنا وهناك، اختلفت غاياتهم وطرائقهم، كما اختلفت أصولهم ومنابعهم، ولكنَّهم اتَّفقوا على معارضة فكر المودودي ودعوته، جزئيًّا أو كليًّا، وإن كان من الملاحظ أنَّ جُلَّ المنتقدين للمودودي من داخل القارَّة الهنديَّة لا من خارجها، وهذا له أسبابه كما سنشير إلى ذلك بعد، ممَّا يدلُّ على أنَّ الخلاف ليس فكريًّا خالصًا.

خصائص فكر المودودي:

ولفكر المودودي خصائص تُمَيِّزُه، وسمات تُشَخِّصه وتُحَدِّده، وإذا أردنا أن نعرف هذه الخصائص والسمات، فلا بدَّ أن نتعرَّف على الأرضيَّة الفِكْرِيَّة الَّتي سادت في الهند خاصَّة، وفي العالَم الإسلاميِّ عامَّة في تلك الفترة الَّتي برز فيها المودودي إلى مَيْدان الفكر، يجاهد بالقلم،

QaradawiBooks.com

ويُحارب بالمنطق، وينازل الأقران والخصوم بالحُجَّة والبيان. وذلك منذ أواخر النصف الأوَّل من القرن الرابع عشر الهجري، وأوائل الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي.

غير مرخصة للطباعة

الفكر السائد في الهند عند ظهور المودودي:

أجل، فقد ظهر المودودي إبَّان طغيان الحضارة الغربيَّة والفكر الغربي على ديار المسلمين، بعد سقوط الخلافة العثمانيَّة، وسيطرة الاستعمار عسكريًّا وسياسيًّا ثُمَّ فكريًّا على البلاد الَّتي كانت تسيطر عليها.

كان الفكر السائد في الساحة الإسلاميَّة يتمثَّل في هذه الأنواع:

١ ـ الفكر التقليدي:

الفِكْر «التقليدي» الجامد على القديم، الَّذي يرى أنَّ الأوَّل لم يتركْ للآخِر شيئًا، وأنَّ باب الاجتهاد مُغْلَق، وأنَّ التقليد حتمٌ لازم، وأنَّ التحرُّر من المذهبيَّة الضيِّقة تحلُّلٌ من الدِّين نَفْسِه.

أصحاب هذا الفكر يعيشون في مشكلات فِكْرِيَّة قديمة، ورثوها من علم الكلام القديم، ولم يَعُدْ لها بروزٌ اليوم، حتَّى تستحقَّ أنْ يُقاتلوا عليها عدوًّا غير موجود.

كما ورثوا من الفقه القديم قضايا انتهت، ولم ينتهوا هم منها.

المهمُّ أنَّهم يُعادون كلَّ جديد، ويرفضون كلَّ تجديد، مُغْلِقين باب الاجتهاد، داعين لأنْ يبقى كلُّ قديمٍ على حاله، وإنْ تغيَّر الزمان والمكان والإنسان. ولَيْتَهم وقفوا عند القديم الأصيلِ الحيِّ، وإنَّما هو قديم المتأخِّرين، الَّذين قُدِّرَ لهم أنْ يعيشوا في عصور الركودِ والتخلُّف

QaradawiBooks.com

والتراجع، ومن يدري؟! لعلَّهم لو أدركهم عصرُنا بمتغيِّراته الهائلة لغيَّروا كثيرًا من مواقعهم وآرائهم. فقد رأينا للشافعيِّ مذهبَيْن: قديمًا وجديدًا، ويُقال: قال الشافعي في القديم، وقال الشافعي في الجديد. ورأينا أصحابَ أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثُلُثِ المذهب، ورأينا مالكًا وأحمدَ تُرْوى عنه في المسألة الواحدة روايات عدَّة، ويروي عنه أصحابُه أقوالًا متغايرة، نظرًا لتغيُّر الزمان أو المكان أو الحال.

وقد هزَّ حكيمُ الإسلام في الهند شاه ولي الله الدِّهلوي (ت: ١١٧٦هـ) هذا الفكر من جموده، وأيقظه من رُقوده، ولكنْ بقي كثيرون في الهند متمسِّكين بالقديم، عاضِّين عليه بالنواجذ، معتبرين أنَّ ما ألَّفه مُتَأَخِّرو الحنفيَّة في كتبهم هو غاية التحقيق، ونهاية التدقيق، ولا يجوز الخروج عنه بحالٍ، ومحاولة ذلك تدلُّ على التفلُّت من الدِّين، والانسلاخِ من رِبقة الكتاب والسُّنَّة. لهذا كان تقليد المذهب الحنفيِّ هو السائدَ، وتمسُّك كلِّ ذي مذهبٍ بمذهبه هو المعمولَ به. التمسُّك بالأشعريَّة أو الماتُرِيديَّة في العقائد، والتمسُّك بمذهب أبي حنيفة غالبًا، وأحيانًا الشافعي، والتمسُّك بالصُّوفيَّة ـ وعلى رأسهم الإمام الجُنَيْد ـ هو المتَّبع في السلوك.

كما كنَّا ندرس ذلك في المرحلة الثانويَّة من معاهد الأزهر في شرح كتاب «الجوهرة» في علم التوحيد، حين يقول الناظم:

ومالِكٌ وسائرُ الأئمَّةْ كَذَا أَبُو القَاسِمْ هُدَاةُ الْأُمَّةْ
فواجبٌ تَقْلِيدُ حَبْرٍ مِنْهُمُو كَمَا حَكَى الْقَوْمُ بِلَفْظٍ يُفْهَمُ[1]

(١) انظر: القول السديد شرح جوهرة التوحيد صـ ١١٣، ١١٤، نشر دار الكتب العلمية، ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

والمراد بسائر الأئمَّة مع مالك: بقيَّة الأئمَّة الأربعة: أبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، وأمَّا أبو القاسم المذكور فيعني به الجُنَيْد، إمام التصوُّف والتربية الرُّوحيَّة، فهو يرى وجوب التقليد في الفقه، وفي علم التصوُّف والسُّلُوك.

٢ ـ الفِكْر الخُرَافي:

وكان في الهند الكبرى ـ كما كان في غيرها من بلاد الإسلام ـ كذلك لونٌ سائد من التفكير، له سوقٌ نافقة، وتجارة رائجة، وله سدنته وأتباعه، وحلقاته المنتشرة بين جم غفير من الناس، ذلكم هو «التفكير الخرافي»، الَّذي يزعم أهله الانتماء إلى التصوف، ويتمسح بالصُّوفيَّة، وما هم من التصوُّف السُّنِّي الحقيقي في شيء، إنَّهم في الحقيقة مُتَخَلِّفون عن الركب، جهلوا قوانين الكون وقوانين الشرع جميعًا، وتخيَّلوا عالمًا غير مضبوطٍ بسُنَن، ولا محكومٍ بنظامٍ، يدَّعُون فيه لأنفسهم أو لشيوخهم معرفةَ الغيوب، وكشفَ الكروب، وخرقَ العوائد. ولا يقتصر ذلك على الشيوخ الأحياء، بل الأموات أيضًا، الَّذين يزورون أضرحتَهم ومشاهِدَهم، ويطوفون حولها كما يُطاف حول الكعبة! وينذرون لها النذور، ويذبحون لها الذبائح، ويستغيثون بالمقبورين فيها لقضاء الحاجات، والخلاص من المُلِمَّات!

ولم يجد هؤلاء العوامُّ من يُصَحِّح لهم عقائدهم، ويصوِّب لهم مفاهيمهم، ويرشدهم إلى الدِّين الصحيح، بل وجدوا من مشايخ الدِّين من يُزَيِّن لهم ما هم فيه من انحراف وضلال. والعوامُّ يصدِّقون هؤلاء لِمَا يُزَيِّنهم من شارات أهل العلم والدِّين، وما يحفظون من حِكَم وأقوالٍ تُحَرِّك القلوب، وتثير الشُّجُون، وهم يُسَيْطرون على العوامِّ بادِّعاء

QaradawiBooks.com

الكرامات، وإيجاب الطاعة العمياء، حتَّى لقَّنوا أتباعهم: من قال لشيخه: لم؟ لم يُفْلِح! والمُرِيد بين يَدَي الشَّيْخِ كالميِّت بين يدي الغاسل! إنَّهم يستغيثون بالموتى، ويتبرَّكون بقبورهم. بل يخترعون لهم قبورًا، يَدْعُونهم عندها أنْ يكشفوا عنهم الغمَّ، ويُزيحوا الظُّلْم، ويعتقدون أنَّهم يضرُّون وينفعون، وينصرون ويخذُلون.

وهم لا يقفون موقفًا إيجابيًّا من مظالمَ تُرْتَكَب، أو منكراتٍ تَسْتَعْلِن، أو فسادٍ ينتشر في البرِّ والبحر، وربَّما برَّروا سكوتهم على المنكر بأنَّ من نظر إلى العصاة والطغاة بعين «الشريعة» مقتهم، ومن نظر إليهم بعين «الحقيقة» عذرهم! فالشريعة عندهم شيءٌ، والحقيقة شيءٌ آخر.

إنَّ عقيدة هؤلاء قد أفسدها الشرك والجبر، وعبادتهم قد أفسدها الابتداع والغلو، وأخلاقهم قد أفسدها الخنوع والسلبيَّة، وعقولهم قد أفسدها التقليد الأعمى للآخرين.

هذا هو لون التفكير الَّذي غلب على جماعاتٍ كثيرةٍ من أدعياء التصوُّف في كثيرٍ من بلاد المسلمين. ولكنَّه في الهند أكثر مساحة، وأعمق تأثيرًا، نظرًا لمجاورتهم للهندوس، سواء ممَّن اتَّخذوه تجارة، أو ورثوه كما يورث المتاع عن آبائهم وبيئتهم، ولم يزنوا معارفه وأحواله وأذواقه بميزان الكتاب والسُّنَّة، ولم يلتزموا بما التزم به كبارُ شيوخهم مثل «الجُنَيْد» وغيره، من التقيُّد بالقرآن والحديث.

يتحدَّث الشيخ عن الحالة الدِّينيَّة في الهند الكبرى الَّتي تشمل الآن «الهند وباكستان وبنجلاديش» ويقول: «سَرِّحوا النَّظر فيما عليه حالة النَّاس الدِّينيَّة في أيِّ بقعة من بقاع بلادكم، ثُمَّ ارجعوا إلى التاريخ، وابحثوا عن الدِّين الَّذي كان النَّاس يدينونه في هذه البقعة قبل أنْ يأتيهم

QaradawiBooks.com

الإسلام، فستعلمون أنَّه يوجد هناك كثيرٌ من العقائد والأعمال الَّتي تُشْبِهُ عقائد الدِّين المُنْقَرِض وأعماله، إلَّا أنَّها في شكلٍ آخر، ولونٍ غير لونه.

فالبقاع الَّتي كانت فيها الديانة البُوذيَّة قبل الإسلام مثلًا، كان النَّاس يعبدون فيها آثار بوذا، فهنا سِنٌّ من أسنانه، وهناك عَظْم من أعظُمه، وثمَّة شيءٌ آخر من أشيائه يعبده النَّاس ويَتبرَّكون به، وإنَّكم لتجدون اليوم أنَّ النَّاس في هـذه البقاع يعاملـون مثل هذه المعاملة شـعرًا من أشـعار النبـيِّ ﷺ، أو أثرًا من آثـار قدمـه، أو يَتَبَرَّكون بآثـار بعض صالحي المسلمين وعابديهم.

وكذلك إذا اسـتعرضتم كثيرًا من الرسـوم والعادات المُتَفَشِّية اليوم ببعض القبائل المتوغِّلة في إسـلامها، ثُمَّ نظرتهم فيما يروج في البطون غير المسلمة لهذه القبائل نفسها من الرسوم والتقاليد، فقليلًا ما تجدون فارقًا بين هذه وتلك. أفليس ذلك ممَّا يشهد شهادة ناطقةً بأنَّ الَّذين كان بِيَدِهم زمام أمر المسـلمين وشـؤونهم الاجتماعيَّة في القرون السالفة، قصَّروا في أداء واجبهم أيَّما تقصير، إذ لم يمُدُّوا يد التعاون والمسـاعدة إلى الَّذين بذلوا جهودهم في نشر الإسلام بجهودهم الفرديَّة. فقد انجذب مئات الملايين من النَّاس إلى حظيرة الإسـلام، متأثِّرين بدعوته، ولكن الَّذين كانوا سدنة لبيت الإسلام متولِّين أموره، لم يُعْنُوا في قليلٍ ولا كثيرٍ بتعليمهم وتربيتهم، وتزكية حياتهم، وإصلاح فكرهم، فلم يُكْتَبْ لهم أن يتمتعوا ببركات الإسلام ونِعَم التوحيد حقَّ التمتع، ويقوا أنفسهم المضارَّ الَّتي هي نتيجة لازمة للشرك والجاهليَّة.

ثُـمَّ ارجعوا ببصركم إلى مـا كان عليه علماؤنا ومشـايخنا في هذه القرون الماضية، فممَّا لا مجال فيه للريـب والمكابرة أن كان فيهم نفرٌ

QaradawiBooks.com

أسدَوْا إلى الدِّين خدمات جليلة كانت نافعة بالأمس، ولا تزال نافعة إلى اليوم، إلَّا أنَّ المشاغل الَّتي شغلت معظم علمائنا وألْهتهم عن الجِدِّ في أمر الدِّين الحقيقي، كانت من قِبَل أن كانوا يتناظرون في المسائل التافهة غير المهمَّة، ويُجسِّمونها في نظر الناس، ويُوارون عنهم المسائل الهامَّة الجليلة، ويجعلون الخلاف أساسًا لفِرقٍ مستقلَّة، ويجعلون التحزُّب والتفرُّق مضمارًا للمجادلات والمخاصمات، ويقتلون أعمارهم في تعليم علوم المعقولات اليونانيَّة وتعلُّمِها. أمَّا الكتاب والسُّنَّة، فلم يكن لهم ولوع بدراستهما، ولم يؤتوا حظًّا من معارفهما، ولذلك لم يتمكَّنوا من تعميم معارف القرآن والسُّنَّة، وترغيب النَّاس في ارتياد مناهلها. وأمَّا إن كان لهم بعض شغف بالفقه، فإنَّما ذلك إلى حدٍّ يعينهم على مجادلاتهم ومناقشاتهم في الجزئيَّات والفروع. إنَّهم لم يلتفتوا ولو أدنى التفاتٍ إلى التفقُّه في الدين بمعناه الشامل، ولذا فحيثما كان لهم نفوذٌ أو تأثير، ضاقت وجهةُ نظر النَّاس في الدِّين.

فلا عجب إذا كُنَّا قد ورثنا اليوم هذا الزرع الأخضر من المجادلات والمناظرات والتحزُّبات والفتن المستمرَّة.

وإنْ تعجبْ فعجبٌ من حال الصُّوفيَّة، فإنَّكم إذا سَرَّحْتم النظر فيهم لا تجدون من بينهم من عملوا بالتصوُّف الإسلامي الحقيقي وعلَّموه الناس، إلَّا عددًا يسيرًا. أمَّا معظمُهم فكانوا يدعون النَّاس ويرشدونهم إلى تصوف كان مِزاجًا من الفلسفات الإشراقيَّة والويدانتيَّة والمانويَّة والزرداشتيَّة، وكانت طرقُ الرُّهبان والأحبار والإشراقيِّين والرِّوَاقيِّين اختلطت به اختلاطًا، حتَّى لم تُبْقِ له علاقةً بعقائد الإسلام وأعماله الخالصة إلَّا قليلًا. ولقد كان عباد الله يرجعون إليهم مستهدين إلى الله، وهم يهدونهم إلى طرقٍ مُعْوَجَّة، وسُبُلٍ زائفة.

QaradawiBooks.com

ثُمَّ لمَّا خَلَف من بَعْدِهم خَلْفٌ ورثوا فيما ورثوا عن أسلافهم مُريدِيهم وأتباعَهم، ولم يُبْقوا ممَّا كان بينهم من العلائق إلَّا على علاقةِ النُّذور والهدايا، دون الإرشاد والوعظ والتربية. وأكثر ما سعت له هذه الدوائر، ولا تزال تسعى له هو: ألَّا يتسرَّبَ قبسٌ من العلم الصحيح بالدِّين إلى حيث لمشيختهم النفوذ والتأثير، فإنَّهم يعرفون كلَّ المعرفة أنَّه لن يدوم لسِحْرِهم ودجلهم تأثيرٌ في الناس، إلَّا ما داموا جاهلين بدِينِهم»[(١)].

٣ ـ الفكر التابع للغرب:

يقابل هؤلاء أصحاب «الفكر الذَّيْلي»، الفكر التابع للغرب، الممالئ للحضارة الغربيَّة، الخاضع لنفوذها، السائر في ركابها، الراكع تحت قدمَيْها. هؤلاء الَّذين سمَّيْتُهم «عبيد الفكر الغربي»، فليسوا مجرَّد تلاميذ لهذا الفكر الدَّخِيل، فإنَّ التلميذ يُناقش أستاذه، ويأخذ منه ويردُّ عليه. وإنَّما هم عبيدٌ له حقًّا، وقفوا منه موقف الانحناء والتسليم بكلِّ قضاياه، ورأوا وجوب نقله إلى أُمَّتِنا بعُجَرِه وبُجَرِه، لأنَّ الحضارة في نظرهم لا تتجزَّأ، فلا يجوز أنْ يؤخذ منها الجانب العلمي أو التكنولوجي دون الرجوع إلى جذورها الفِكْرِيَّة والفلسفيَّة، وأصولها الأدبيَّة والنفسيَّة.

ولا غرو أنْ نادى مناديهم في مصر بأنَّ سبيل النهضة واضحة بيِّنة، وهي أنْ نسير سيرة الأوربيِّين في حضارتهم، خيرها وشرِّها، وحلوها ومُرِّها، ما يُحَبُّ منها وما يُكره، وما يُحمَد منها وما يُعاب، ومن ظنَّ غير ذلك فهو خادعٌ أو مخدوع[(٢)]!

(١) موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه لأبي الأعلى المودودي صـ ١٤٨ ـ ١٥١، نشر دار الفكر الحديث، بيروت، ط٢، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.

(٢) انظر: مستقبل الثقافة في مصر صـ ٣٩، نشر دار المعرفة، ط٢، ١٩٩٦م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وما نودي به في مصر نودي بمثله في الهند وغيرها في بلاد الإسلام، وظهر في الهند دُعاة كبارٌ ينادون جهرة باتِّباع الحضارة الغربيَّة، مثل السيِّد أحمد خان وغيره.

وهؤلاء قد فقدوا كلَّ ثقة بدينهم وبتراثهم وأُمَّتهم، ولم يعودوا مسلمين إلَّا بالوراثة والأسماء. ولهذا يجب ألَّا يعتبر تفكير هؤلاء في عداد الفكر الإسلامي، فهو في الحقيقة فكرٌ غربيٌّ مَحْض، وإن كتب في بعض الأحيان بلغة شرقيَّة، فلا فرق في الحقيقة بين فكر هذه الطائفة وبين فكر المستشرقين، إلَّا أنَّ هذا هو الأصل، وذلك هو الصورة، فهم يتَّبعونه شبرًا بشبر، وذارعًا بذراع!

وينقسم أصحاب هذا الفكر عادةً إلى يمين ويسار، ولكنَّهم في النهاية عبيدُ الفكر الغربي مهما اختلفت مدارسه، وتنوَّعت وجهاته، وكلُّها في الواقع فروعٌ لشجرةٍ واحدة، هي «المادِّيَّة» في التفكير، و«الحيوانيَّة» في السلوك. لا قيمة في هذا الفكر التابع للغرب وثقافته ومنابعه للإيمان بالغيب (الله والملائكة والكتب والرسل والآخرة)، ولا قيمة ولا منزلة للقيم والأخلاق في السلوك الراشد للإنسان. ولعلَّ ما يعتبر في عصر راشد، يعد في عصر آخر غثًّا وخبيثًا. وكم رأينا من محاولات مستميتة لأصحاب هذا الفكر، يُشَوِّهون فهم القرآن والحديث النبوي، وفقه الإسلام وعلوم المسلمين.

٤ ـ الفكر التبريري أو الانهزامي:

ويأتي بعد هؤلاء قوم أحسن حالًا، وهم أصحاب «الفكر التبريري» أو «الانهزامي»، وهؤلاء لا يرفضون الإسلام ولا يكرهونه، ولكنَّهم يشعرون بضغط الحضارة الوافدة عليهم، ويؤمنون من داخلهم بتفوُّقها

QaradawiBooks.com

ومقدرتها، ولذا يقعون فريسةً للهزيمة النفسيَّة أمام هذه الحضارة، شعروا بهذا أم لم يشعروا، وهم لهذا يحاولون تبرير الأوضاع الَّتي فرضتها هذه الحضارة، وإلباسها «عمامة» شرعيَّة، بإصدار الفتاوى والتصريحات والمقالات الَّتي تعطيها حقَّ البقاء باسم الإسلام، ومن ثَمَّ كانت محاولات تحليل «الربا» إذا لم يكن «أضعافًا مضاعفة»، أو إذا كان للإنتاج لا للاستهلاك، ومحاولات منع إباحة الطلاق، وتعدُّد الزوجات، ومحاولات تعرية المرأة المسلمة من حجابها الَّذي تميَّزت به، وسلخها من جِلْدها لتقليد المرأة الغربيَّة حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، ومحاولات فسخ معنى «الجهاد» وإلغائه من الحياة الإسلاميَّة، لتبقى الأُمَّة الإسلاميَّة فريسة لكلِّ صائل، لا مخلب لها ولا ناب.

ومن هؤلاء من يرى ما يرى في هذا الاتِّجاه مخلصًا مجتهدًا، وإن أخطأ في اجتهاده، ومنهم من يتَّخذ من آرائه وسيلةً لإرضاء الحُكَّام في الداخل، أو دوائر النفوذ في الخارج، فهو مستعدٌّ لتفريخ الفتاوى لتسويغ كلِّ تصرُّف شاذٍّ. يبيع دِينَه بعَرَض يسيرٍ من الدُّنْيا، ويشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا!

٥ ـ الفكر الدفاعي أو الاعتذاري:

وأفضل هؤلاء أصحاب «الفكر الاعتذاري» أو «الدفاعي»، وهم الَّذين يفترضون الإسلام في «قفص الاتِّهام»، قد أقيمت ضدَّه الدعاوى العريضة، بأنَّه أوجب كذا، وحرَّم كذا، وأحلَّ كذا، وشرع كذا، ممَّا لا يستسيغه العقل الغربي، أو العقل الشرقي المتغرِّب. وهؤلاء لا ينكرون ما جاء به الإسلام، ولا يُبَرِّرون ما يخالفه، ولكنَّهم يتحدَّثون عنه بلُغة المدافع، ولهجة المعتذر، الَّذي يرى كأنَّما خطُّ الحضارة الغربيَّة هو الأصل، وكلُّ ما خالفه جاء على خلاف الأصل.

QaradawiBooks.com

وقد قال علماؤنا: ما جاء على الأصل لا يسأل عنه. أمَّا ما خالف الفكرة الغربيَّة فهو خلاف الأصل، فلا بدَّ من تفسيره وتبريره والاعتذار عنه بعلَّة أو بأخرى.

ولا ريب أنَّ انتصار الغرب عسكريًّا، وسيطرته اقتصاديًّا، ونفوذه سياسيًّا، وتفوُّقه علميًّا، وتغلغله في بلادنا فكريًّا: جعل هؤلاء ينظرون إليه نظرةً فيها كثيرٌ من الإجلال والإكبار، على حين ينظرون إلى أنفسهم نظرةً فيها كثيرٌ من الاستهانة والاستصغار.

وكم رأينا في بلادنا رجالًا ظنُّوا أنفسَهم كبارًا، أو ظنَّهم النَّاسُ كبارًا، خضعوا لهذه الأفكار، واسترقتهم استرقاقًا، وعاشوا وماتوا أسرى لفِكْر الغرب وحضارته.

٦ ـ فكر منكري السُّنَّة:

وبجوار هؤلاء وأولئك كان في الهند الكبرى حركة «منكري السُّنَّة»، بزعم الاكتفاء بالقرآن، جاهلين أو متجاهلين أنَّ القرآن لا يُفْهم بغير السُّنَّة، وأنَّها البيان النظري، والتطبيق العملي لكتاب الله. وقد كان لهم نشاطٌ ظاهر، لفت الأنظار، وشغل النَّاس في الهند، وملأ الساحات بالجدل، والقيل والقال. ولقد جادلهم الأستاذ المودودي ببيناته وحُجَجه، وردَّ على دَعَاواهم، ولم يُبْقِ لهم دليلًا يستندون إليه.

٧ ـ الفكر القادياني:

وأسوأ من هؤلاء: أولئك الَّذين اتَّبعوا «نبوَّة جديدة» بعد النبوَّة الخاتمة، شرعت لهم إبطال الجهاد في سبيل الله، وطاعة المستعمرين الكفَّار، وصدق إقبال حين قال عن دعوة هؤلاء: إنَّها ثورةٌ على النبوَّة المحمَّديَّة!

QaradawiBooks.com

هؤلاء هم القاديانيُّون، الَّذين كان لهم نشـاطٌ ملمـوس، ولهم عَلَمٌ مرفوع، وصوت مسموع، يتمثَّل في كتبٍ ونشرات، ورسائلَ ومحاضرات. وقد نشؤوا في حضانة الاستعمار الإنجليزي، وصنعوا على عَيْنه، ورُبُّوا على يديه، ونشطوا تحت أسنَّة رماحه.

ظهور المودودي وفكره:

في هذا الجوِّ المزدحم بالمتناقضات، الحافل بالصراعات، والَّذي لم يكد أحدٌ ينجو مـن رَذاذه أو دُخَانه، حتَّى شـاعر الإسـلام في الهند، وفيلسوف المسلمين محمَّد إقبال، لم يسلم فكره من بعض الغبش الَّذي أثَّر فيه في بعض الأحيان، فوجدناه يمدح عدوَّ الفكرة الإسلاميَّة، والأُمَّة الإسلاميَّة: كمال أتاتورك[1]!

وقد كان ذلك منه أوَّلَ الأمر، لكنَّه سرعان ما استدرك وذمَّه وانتقده، بعد أنْ بدأت نواياه الخبيثة في الظهور، فعندما قرَّر أتاتورك تغيير كتابة اللغة التُّركيَّة من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني قال ما معناه: «في أيَّة متاهات أضعت نفسك باسم اللادينيَّة واللاتينيَّة؟!»

ويقول في أبياتٍ تحت عنوان «مشـرق»: «إنَّ رُوح الشرق لا زالت تتوق إلى جسـدها، فازدهارها ليس بيد مصطفى أتاتورك أو رضا شـاه بهلوي»[2].

(١) ديوان بيام مشرق (٣٠٢/١)، قصيدة بعنوان: خطاب إلى مصطفى كمال باشا أيده الله، ترجمة عبد الوهاب عزام، إعداد سـيد عبد الماجد الغوري، نشـر دار ابن كثيـر، بيروت، ط ٣، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) ديوان ضرْب كليم (١١١/٢، ١١٢)، قصيدة المشرق، ترجمة الأستاذ عبد الوهاب عزام:

ما (مصطفى) أو (رضا) جلَّى حقيقتها فالروح في الشرق جسمًا تطلب الآنا

QaradawiBooks.com

وحذَّر النساء المسلمات من السير على خُطَا أتاتورك، بالإباحيَّة والانحلال.

غير مرخصة للطباعة

ولعلَّ موقف إقبال يشبه موقف أحمد شوقي أمير الشعراء، حين مدح أتاتورك في أوَّل الأمر، فقال:

اللهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ[1]

ثم عاد فقال بعد سقوط الخلافة:

عَادَتْ أَغَانِي الْعُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ وَنُعِيتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ
كُفِّنْتِ فِي لَيْلِ الزِّفَافِ بِثَوْبِهِ وَدُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ[2]

سمات الفكر المودودي:

وهنا قَدَّر اللهُ تعالى أنْ يظهر المودودي بفكره التجديدي الأصيل، يعرض الإسلام كما أنزله الله، لا كما يشتهيه أو يتوهَّمه الناس. الإسلام كما هو، وكيف هو. لا يعتسف في تأويلٍ، ولا يلجأ إلى تبريرٍ، ولا يعتذر عن حكمٍ جاء به الوحي، وصحَّ نَسَبُه إلى الإسلام، ولا يُقيم معركة بين العقل والوحي، بل يجعل العقل في خدمة الوحي فهمًا وبيانًا وتعليلًا.

١ ـ الالتزام بالإسلام كلِّ الإسلام:

لم يكن إسلام المودودي، الَّذي جنَّد نفسه لتجديده، إسلام الجامدين من مُقَلِّدة المذاهب، الَّذين رفضوا الاجتهاد والتجديد، ولم يعرفوا العلم إلَّا في كتب المُتَأخِّرين من علماء المذهب، وما عدا ذلك فهو مردود.

(١) انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (٥٩/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.
(٢) انظر القصيدة كاملة: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٠٥/١ ـ ١٠٩).

QaradawiBooks.com

ولم يكن إسلامُه إسلامَ خصومهم الَّذين رفضوا المذهبيَّة، ولكنَّهم وقعوا أسرى الشكليَّة والحرفيَّة واللَّفظيَّة، ولم تتَّسع آفاقُهم لتَفْهَم مقاصد الشريعة، واستيعاب رُوح الإسلام، وهم الَّذين سمَّيْتُهم «الظاهريَّة الجُدُد»، الَّذين نصبوا معركة بين النصوص الجزئيَّة والمقاصد الكُلِّيَّة للشريعة.

ولم يكن إسلامُه إسلامَ خصومِ هؤلاء وأولئك، من المخرِّفين من أتباع التصوُّف المنحرف، الَّذين أفسدوا العقائد بالخرافات، وأفسدوا العبادة بالمُبْتَدَعات، وأفسدوا الأفكار والسلوك بالتربية السلبيَّة، الَّتي تجعل المريد بين يدي الشيخ كالميِّت بين يدي الغاسل.

ولم يكن إسلامه إسلام دعاة العصريَّة، من عُبَّاد الحضارة الغربيَّة وعبيد الفكر الغربي، الَّذين غيَّروا قبلتهم من مكَّة إلى أوربا، وأرادوا أنْ يجعلوا من الإسلام ذَيْلًا لحضارتها.

كان إسلام المودودي الَّذي يدعو إليه إسلامًا خالصًا لا يقبل الشَّركة، ولا تشوبه شائبة، فلم يقبل في يومٍ من الأيام أنْ يشوبه باشتراكيَّة أو ديمقراطيَّة أو قوميَّة. فلكلٍّ من هذه الدعوات وِجْهَتُها ومحتواها وغاياتها ووسائلها الخاصَّة. أمَّا الإسلام فهو نسيجُ وَحْدِه، سابقٌ عليها، متميِّز عنها بمضمونه، وأهدافه، ووسائله، ويكفي أنَّها تُمثِّل قصور البشر، وأهواء البشر، وهو يُمَثِّل كمال الله، وعدل الله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

كان إسلام المودودي إسلامًا شاملًا، لا يقتصر على العقيدة، وإن كانت هي أساس البناء، ومنها انطلق إلى نظريَّاته السياسيَّة وغيرها. ولا يقف عند حدِّ العبادة الشعائريَّة، بل ينطلق منها إلى جَعْل الدِّين كُلِّه عبادة، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية من قَبْله.

QaradawiBooks.com

لا يكتفي بالأخلاق، على الرغم من منزلتها في الدِّين: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم صالح الأخلاق**»[١]. إنَّما الإسلام عنده «نظام كامل للحياة»، فهو نظام عبادي، ونظام خُلُقي، ونظام اجتماعي، ونظام اقتصادي، ونظام سياسي. وقد وضح ذلك في رسائله وكتبه، ومنها رسالة «نظام الحياة في الإسلام».

هذه هي المزيَّة الأولى لفكر المودودي: أنَّه ملتزم بالإسلام كلِّ الإسلام، بلا تنازلٍ ولا مساومة.

٢ ـ المعاصرة:

وكانت المزيَّة الثانية لفكر المودودي: أنَّه ينظر إلى الإسلام بعينٍ وإلى العصر بأخرى، فهو لا يعيش في الماضي معزولًا عن الحاضر، بل يخاطب العقل المعاصر بلُغته، ويحاجُّه بمنطقه، ويُلزمه بمقتضى مسلماته الفِكْرِيَّة والعلميَّة. وهذا شأن الداعية الموفَّق، الَّذي فقه معنى البيان في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد آتاه الله موهبة «التأصيل» و«التنظير»، فهو يُنَظِّم الحبَّات المتناثرة في سلك يجعل منها عِقْدًا، ويردُّ الجزئيَّات إلى الكُلِّيَّات، والفروع إلى الأصول، بحيث يستخرج منها الفكرة الكُلِّيَّة للإسلام، أو ما يُسَمَّى «النظريَّة الإسلاميَّة».

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والذي يقرأ كتب المودودي ورسائله ومحاضراته يستبين بوضوح: أنَّ الرجل يعيش في عصره، مُطَّلِع على مشكلاته، خبيرٌ بما يدور في مجتمعه من تيارات، مُطَّلعٌ على الحضارة الجديدة الغازية، وما تُبهر به الجيل الجديد من إنجازات، بصير بما وراء مظهرها البرَّاق من مَخْبَر خبيث، فهو قارئٌ مُتَعَمِّق لمصادرها، مدركٌ جيِّد للأسس الفِكْرِيَّة والفلسفيَّة والمعنويَّة لهذه الحضارة، واعٍ لخصائصها ومُشَخِّصاتها، مُتَبَيِّن لأمراضها وآفاتها، لا يخدعُه العَرَض عن الجوهر، ولا الشكل عن المضمون، ولا ما تزدان به السُّطوح عمَّا يجري في الأعماق.

٣ ـ المواجهة:

لم يسلك المودودي سبيل «المعتذرين» عن الإسلام، أو «المحامين» الَّذين تصوَّروه داخل قفص الاتِّهام ثُمَّ تولَّوا الدفاع عنه، أمام هجمات الحضارة الغربيَّة ودعاتها من ليبراليِّين واشتراكيِّين.

أجل، لم يكن المودودي يومًا في موقف الدفاع أو الاعتذار، أمام الحضارة الوافدة، والأفكار الدخيلة، والتيارات المنحرفة، بل كان موقفه المواجهة والهجوم. ولم يرعه هذا «الصنم الكبير»، الَّذي وقف تجاهه الكثيرون مبهورين، وخرَّ أمامه آخرون ساجدين، وهو صنم «الحضارة الغربيَّة»، الَّتي بلغت أوجها بالتفوُّق العلمي والتكنولوجي.

فقد كان معتزًّا بإسلامه غاية الاعتزاز، مؤمنًا بتفوُّق رسالته كلَّ الإيمان، وكان أساس إيمانه أنَّ ما وضعه المخلوق، بما فيه من قصورٍ ذاتي، وهوًى غالب، لا يمكن أنْ يرقى إلى ما شرعه الخالق، الَّذي وسعت كلَّ الخلق رحمته، ووسع كلَّ شيءٍ علمه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

QaradawiBooks.com

وكان ـ كما ذكرنا ـ على معرفة كافية بعيوب الحضارة الغربيَّة، ونقاط الضعف فيها، ومواضع الخلاف فيها لرسالة الإسلام، ولا غرو أنْ شنَّ حملته على تلك الحضارة، ونقدها نقدًا علميًّا أظهر عَوَارها، وكان أقدر من تَصَدَّوا لهذه المهمَّة الجليلة: مهمَّة إعادة الثقة بالإسلام في مواجهة الحضارة الغربيَّة، وكان أحقَّ بها وأهلها.

نقد الحضارة الغربيَّة بقوَّة في «جانبها الاجتماعي»، حين أصدر كتابه: «الحجاب»، مُبَيِّنًا فيه فلسفة الإسلام في الاحتشام، ونظرته إلى المرأة والأسرة، الَّتي تخالف جذريًّا نظرة الحضارة الغربيَّة.

ونقد الحضارة الغربيَّة بقوَّة في «جانبها الاقتصادي» حين ألَّف كتابه في «الربا»، الَّذي يعتبر عصب النظام الرأسمالي، الَّذي قامت عليه المدنيَّة الغربيَّة، وبيَّن الحكمة من وراء تحريم الإسلام للربا، إلى حدِّ أن آذَن القرآن فاعله بحربٍ من الله ورسوله.

كما بيَّن من ناحية أخرى مزايا النظام الإسلامي في الاقتصاد، وكيف حلَّ مُعْضِلاته في يسرٍ، ووضع الأسس العادلة لحياة اقتصاديَّة طيِّبة، كما ظهر ذلك في رسالتيْ «مُعْضِلات الاقتصاد وحلُّها في الإسلام»، و«أسس الاقتصاد بين الإسلام والنُّظم المُعاصِرة»[1].

وكذلك نقد المودودي الحضارة الغربيَّة في جانبها السياسي، وإن رأى الكثيرون أنَّه أفضل جوانبها، لِمَا وفَّرت فيه للفرد من حُرِّيَّات، وما حمت من حقوقٍ وحرمات.

(١) تم نشرهما في كتاب واحد في الدار السعودية للنشر والتوزيع، ترجمة محمد عاصم الحداد، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

QaradawiBooks.com

ربَّما كان عيب المـودودي في هـذه المواجهة أنَّـه مبالغة منه في الحفاظ على هُوِيَّة الأُمَّة، وخصائص حضارتها، ومُقَوِّمات رسالتها؛ اتَّخذ خطَّ التشدُّد مع الحضارة الوافدة، ولم يسمح لنفسه بأيِّ قَدْرٍ من الملاينة والمرونة، كما فعل آخرون.

فرأيناه في **الجانب الاجتماعي** (في الحجاب) يوجب النقاب، ولا يكتفي بضرب الخمر على الجيوب، بل يلزم بتغطية الوجوه[١].

وفي **الجانب الاقتصادي**: لم يتبنَّ ما تبنَّاه دعاة آخرون من اتِّجاهات تتعلَّق بالعدالة الاجتماعيَّة، والنزعة الاشتراكيَّة، كما فعل الشيخ مصطفى السباعي في «اشتراكيَّة الإسلام»، وكما فعل الشيخ الغزالي في «الإسلام والمناهج الاشتراكيَّة».

وفي **الجانب السياسي**: رفض الديمقراطيَّة، وانتقدها انتقادًا حارًّا؛ لأنَّه نظر إلى جذورها الفلسفيَّة، واعتبرها حُكْمًا للشعب في مقابلة حُكْم الله[٢]. ولم ينظر إليها كما نظرتُ إليها في كُتُبي ودراساتي، حيث أخذنا منها ضماناتها ووسائلها وآلياتها، في اختيار الحُكَّام ومحاسبتهم وإسقاطهم عند اللزوم، واختيار أهل الحلِّ والعقد، واعتبار الديمقراطيَّة حكم الشعب في مقابلة حكم الفرد، فجوهر الديمقراطيَّة هو أنْ تكون السلطة للأُمَّة لا للحكومة، والديمقراطيَّة في المجتمع المسلم مقيَّدة بأنْ تكون السيادة للشريعة.

وإنْ كان الإمام المودودي ـ كما يقول تلاميذه ـ قد اختار لجماعته طريق الانتخابات، فعقد في عام ١٩٥٧م اجتماعًا شهيرًا في قرية «ماتشي

(١) الحجاب للمودودي صـ ٣٠٣ ـ ٣١١، نشر دار الفكر، بيروت.
(٢) الإسلام والمدنية الحديثة صـ ٣١ وبعدها، نشر الدار السعودية، ط١، ١٣٧٩هـ، ١٩٦٩م.

QaradawiBooks.com

غوت» وكان موضوع المشاركة الانتخابيَّة هو الموضوع الرئيسي للنقاش، وألقى الشيخ المودودي خطابًا استمر لساعات طِوَال، وتمَّت مناقشة الخطاب لمدَّة ثلاثة أيام متواصلة، أقرَّ بعده (٩٢٠) عضوًا من أعضاء الجماعة البالغ عددهم (٩٣٥) عضوًا توجُّه الشيخ، وقرَّروا المشاركة في العمليَّة الانتخابيَّة. كما أعلن خمسة عشر من كبار قياديي الجماعة، الَّذين رفضوا فكرة الانتخابات والديمقراطيَّة، أعلنوا الانفصال عن الجماعة.

ثم شارك الشيخ بنفسه وبجماعته في العمليَّة الديمقراطيَّة، وكان هو من قاد فكرة ومشروع «قرار الأهداف» الَّذي وافق عليه جميع علماء باكستان، ثُمَّ أقرَّه البرلمان، وجعله جزءًا من الدستور الوطني، وبناءً على ذلك اعتبر القرآن والسُّنَّة القانون الأعلى لجمهوريَّة باكستان الإسلاميَّة، ولا يمكن أنْ يُسَنَّ فيها أيُّ قانونٍ يتعارض مع تعاليم القرآن والسُّنَّة.

وفي مواجهة العلَّامة المودودي للحضارة: حدَّد النقاط الأساسيَّة الَّتي تخالف فيها الحضارة الغربيَّة حضارتنا الإسلاميَّة، وهي:

١ ـ العِلْمانيَّة.

٢ ـ القوميَّة.

٣ ـ الديمقراطيَّة.

وتحدَّث عن كلٍّ منها حديثًا مستفيضًا، قد نعرض له بعد.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٢

المودودي مصلحًا وداعية للتغيير

ليس بالضرورة كلُّ مُفكِّـرٍ مصلحًا، فمن المُفَكِّرين من يغلب عليهم «التجريد»، والإغراق في «النظريَّات» أو القضايـا الجدليَّة، دون اهتمام كافٍ بالمجتمع وإصلاحه.

والفكر الإصلاحي هو الَّذي يهتمُّ بالمجتمع ومشـكلاته وجذورها، فيعرف فيه مكامن الداء، ويعرف كيف يصف له الدواء.

والمُفَكِّر المصلح، هو في الواقع طبيبٌ اجتماعي، ينفذ بعين بصيرته إلى حقيقة أدواء الأُمَّة، ولا يكتفي بالنظر إلى الأعراض، دون أن يتعمَّق في معرفة الأسباب، والغوص إلى الأعماق، فإذا عرف حقيقة المرض لم يجعل دواءه مجـرَّد مراهـم تعالج السـطح الخارجـي، دون اجتثاث الجرثومة الداخليَّة، أو تصف مُسَـكِّنات تُخَفِّف الألـم بُرْهة من الزمن، ولا تستأصل الداء من جذوره.

وكان المودودي هنا طبيبًا نطاسيًّا لأُمَّته، عرف حقيقة دائها وجرثومته الأصليَّة وحدَّدها في كلمةٍ واحدة هي: الجاهليَّة. بل هذه في نظره هي داء البشريَّة على مدار التاريخ، وما بعث الرسـل إلَّا ليقتلعوا هذه الجرثومة من جذعها، سـواء كانت جاهليَّة الجحـود والإلحاد، وهـي الجاهليَّة

QaradawiBooks.com

المحضة، أم جاهليَّة الشرك والخرافة، وهي صنو الأولى، والَّتي بعث الله رسله لاقتلاعها، أم جاهليَّة الرهبانيَّة والحرمان.

وبيَّن المودودي أنَّ هناك صراعًا تاريخيًّا دائمًا، كان وسيظل أبدًا، بين الإسلام دين الأنبياء جميعًا، أي الإسلام بمعناه العامِّ، وبين الجاهليَّة بكلِّ معانيها، وأنَّ مُهِمَّة المُجَدِّد الحقيقي: انتزاع القيادة من يد الجاهليَّة.

فالجاهليَّة ليست مرحلة زمنيَّة انتهت بظهور الإسلام، كما يظنُّ الكثيرون. بل هي أفكار ومشاعر وأوضاع ذات سماتٍ معيَّنة، فإذا وُجِدَت وُجِدَت الجاهليَّة، ولو لَبِسَتْ أزهى الثياب. وعلامتُها المميِّزة البعدُ عن هدايةِ الله وحُكْمِ الله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠][1].

لم تكنْ الفكرة الإصلاحيَّة عند المودودي فكرة جزئيَّة ترقيعيَّة، تبقي الأوضاع الجاهليَّة المستوردة على ما هي عليه، مكتفية بإدخال تعديلات تُخَفِّف من غلوائها، وتُقَرِّبها من الإسلام، وتقف بالأُمَّة المسلمة في منتصف الطريق.

كلَّا، لم يقبل المودودي الصُّلْح مع الجاهليَّة، ولم يرضَ معها بأنصاف الحلول، أو اللقاء في منتصفِ الطريق.

بل كانت فكرتُه تهدُف إلى التغيير الكُلِّي، التغيير من الجذور، أيْ تغيير الفلسفة والأفكار والقِيَم والمعايير، قبل تغيير القوانين واللوائح.

أجل، كانت فكرتُه في الإصلاح «فكرة انقلابيَّة» أو «ثوريَّة»، تهدُف إلى تغيير المجتمع من جذوره، بعد هدم صروح الجاهليَّة من أساسها،

(١) راجع: الإسلام والجاهلية صـ ١٤ وما بعدها، نشر دار الفكر الحديث، لبنان، ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

لتبني على أنقاضها حياةً إسلاميَّة متكاملة، حياة توجهها فكريًّا مفاهيم الإسلام، وتزكِّيها روحيًّا عبادات الإسلام. وتحكمها قانونيًّا شريعة الإسلام، وتحرِّكها عاطفيًّا دعوة الإسلام ومشاعر الإسلام، وتضبطها سلوكيًّا أخلاق الإسلام، وقِيَم الإسلام، وآداب الإسلام.

وكان من رسائله الشهيرة: رسالة «منهاج الانقلاب الإسلامي»[(١)]، الَّتي نُقِلَت إلى العربيَّة في الأربعينيَّات من القرن العشرين.

الجانب الحركي في فكر المودودي:

وميزة أخرى للمودودي بين المُفَكِّرين: أنَّه لم يكن مجرَّد مُفَكِّر أكاديمي، أو مُصْلِحٍ نظريٍّ يعيش في برجٍ عاجي، أو في صومعةٍ منعزلة، يُفْرِغ فكره الإصلاحي على الورق، ثُمَّ لا يتحمَّل تَبِعة بعد ذلك، على نحو ما قاله الأستاذ كامل مروة مؤسِّس جريدة «الحياة» اللبنانيَّة: قلْ كلمتَكَ وامْشِ[(٢)]!

لقد كانت للمودودي بجوار رسالته الفِكْرِيَّة العظيمة: رسالة عملية أخرى لا تقل عظمة عن الأولى، وهي: أن يحوِّل فكره إلى حركة، حركة إيجابية بنَّاءة، تعمل على (تأليف الرجال) بعد تأليف (الكتب والرسائل). ذلك أنَّ الفكرة الصحيحة لا تفرض نفسها على النَّاس بمجرد صحتها، إنَّما تنتصر بمن ينصرها من المؤمنين بها، العاملين لها، المجاهدين في سبيلها، وقديمًا قال الشاعر العربي:

---

(١) عنيت بنشرها دار العروبة للدعوة الإسلامية سنة، ١٩٤٦م. ثم طبعت في الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

(٢) صدر العدد الأول من جريدة الحياة اليومية، في صباح الإثنين، ٢٨ يناير ١٩٤٦، الموافق ٢٥ صفر ١٣٦٥هـ، وكان عنوان الباب الافتتاحي الثابت: «قل كلمتك وامشِ»!

QaradawiBooks.com

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلَّا في يدي بطل[(١)]!

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في خطاب الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. هكذا: أيَّدك بنصره تعالى، وأيَّدك بالمؤمنين أيضًا.

ومن ثَمَّ اتَّجه المودودي إلى إنشاء «الجماعة الإسلاميَّة»، الَّتي تتَّخذ الإسلام لها نسبًا وهدفًا ورسالة، والَّتي تحدَّدت مهمَّتها في هذه المبادئ الَّتي دعا إليها:

قال الإمام المودودي في شرح أصول دعوته، وبيان أهدافها ومطالبها الأساسيَّة[(٢)]: «إنَّنا إذا أردنا عرض دعوتنا، وإجمال غايتها وأهدافها في كلماتٍ قليلة، يمكننا أنْ نُقَسِّمها إلى ثلاثة مطالبَ مهمَّة أساسيَّة، وهاك بيانها:

دعوتنا للبشر كافَّة، والمسلمين خاصَّة: أنْ يعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئًا، ولا يتَّخذوا إلٰهًا ولا ربًّا غيره.

ودعوتنا لكلِّ من أظهر الرضا بالإسلام دينًا: أنْ يُخلصوا دينَهم لله، ويُزَكُّوا أنفسَهم من شوائب النفاق، وأعمالهم من التناقض.

ودعوتنا لجميع أهل الأرض: أنْ يُحدثوا انقلابًا عامًّا في أصول الحكم الحاضر، الَّذي استبدَّ به الطواغيت الفجرة، الَّذين ملؤوا الأرض

(١) من شعر الطغرائي، انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (٤٤١/٢)، تحقيق لجنة من الجامعيين، نشر مؤسسة المعارف، بيروت.

(٢) من خطاب ألقاه الأستاذ المودودي تحت عنوان: الدعوة الإسلامية فكرة ومنهجًا، في اجتماع الجماعة الإسلامية الذي عُقد في قرية «دار الإسلام» بالهند، في شهر أبريل عام ١٩٤٥م، والاجتماع كان يضمُّ جميع أعضاء الجماعة في الهند آنذاك. (خليل الحامدي).

QaradawiBooks.com

فسادًا، وأنْ ينتزعوا هذه الإمامة الفِكْرِيَّة والعمليَّة من أيديهم، حتَّى يأخذها رجالٌ يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ويدينون دِينَ الحقِّ ولا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا»[1].

ثم طفق المودودي يشرح هذه الأصول، أو المطالب الثلاثة، فيقول: «إنَّ هذه المطالب الثلاثة واضحة في نفسها وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكنَّه من دواعي الأسف: أنَّها انكسفت شمس معرفتها، وتوارت حقيقتها بأستار من الجهل والغفلة والجمود، حتَّى إنَّ المسلمين أنفسهم أصبحوا بحاجة إلى أن تُشْرح لهم هذه المطالب، ويُبَيَّن لهم مرماها ومغزاها، دع عنك ذكر غير المسلمين، والَّذين لم يتسنَّ لهم معرفة دعوته وتعاليمه.

شرح المطلب الأوَّل:

هذا، وإنَّ العبوديَّة لله الواحد الأحد، الَّتي ندعو إليها، ليس المراد بها أنْ يُقِرَّ العبد بعبوديَّته لله تعالى جلَّ شأنُه، ثُمَّ يبقى في حياته العمليَّة حرًّا طليقًا، كما كان مِنْ قَبْلُ في حياته الجاهليَّة.

وكذلك ليس المقصود من عبوديَّة العبد لله، أن يعتقد كونه تعالى خالقًا للكون، رازقًا لمن في الأرض، مستحقًّا للعبادة من جميع خلقه، من غير أنْ يكون له سلطانٌ في هذه الحياة الدُّنْيا ومسائلها وشؤونها المتعدِّدة المتشعِّبة.

وأيضًا ليس من معنى العبوديَّة، أنْ تقسم الحياة قسمين: قسم يتعلَّق بالدِّين أو الأمور الدِّينيَّة، وقسم يتَّصل بالدنيا وشؤونها العديدة المتنوِّعة،

(١) تذكرة دعاة الإسلام لأبي الأعلى المودودي صـ ١١، ١٢، نشر الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

وأنْ تنحصر العبوديَّة لله في القسم الديني الَّذي لا يخرج ـ حَسَب المصطلح الشائع ـ عن دائرة العقائد والعبادات، والمسائل الَّتي لها علاقة بالحياة الفرديَّة والأحوال الشخصيَّة.

أمَّا الحياة الدنيويَّة وشؤونها المتشعِّبة وفروعها المتنوِّعة من مسائل العمران والسياسة والاقتصاد والآداب والأخلاق، فلا سلطان فيها لله الواحد الأحد، ولا رواج لأحكامه في دائرتها، والعبد حرٌّ في بابها يفعل فيها ما يشاء، ويضع لنفسه من نظم العمران والملك ما يريد، أو يختار من النظم الوضعيَّة ما يُحبُّه ويَرضاه.

فالقائمون بدعوة الإسلام في هذه البلاد ـ وطبعًا في سائر أقطار العالم؛ لأنَّ الدِّين واحد لم يتغيَّر، والكتاب واحدٌ لم يأتِهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ يرون ويعتقدون أنَّ معاني العبوديَّة هذه كلِّها باطلة من أساسها، ويرون القضاء عليها وتصحيحها، على غرار ما يريدون استئصال نظم الكفر والجاهليَّة واجتثاث شرورهما من جذورهما؛ لأنَّ هذه المعاني والتعابير هي الَّتي شوَّهت وجه الحقيقة، ومسخت فكرة الدِّين مسخًا.

والَّذي نراه، ونجزم به ونعتقده، وندعو النَّاس إليه: أنَّ العبوديَّة الَّتي دعا إليها رسل الله الكرام من لدن أبي البشر آدم عليه السلام إلى سيِّدنا وسيِّد المرسلين وخاتمهم محمَّد النبيِّ الأُمِّي ﷺ، المراد بها أنْ يُقِرَّ العبدُ ويعتقد أنَّ ما من إلٰه إلَّا الله الفرد الصمد، الحاكم بين عباده، السيِّد المطاع في بَرِيَّته، المُشَرِّع للدستور والقوانين، والمالك لأمورهم، المُتَصَرِّف في شؤونهم، المُجَازِي على أعمالهم.

QaradawiBooks.com

وعليه أنْ يُسْلِمَ نفْسَه لذلك لله العزيز المقتدر، ويُخلص دينه له تعالى وحده، ويُذعن لعبوديته في كلِّ شأن من شؤون حياته الفرديَّة منها والجماعيَّة، الخُلُقِيَّة منها والسياسيَّة، الاقتصاديَّة منها والاجتماعيَّة.

وبهذا المعنى ورد في التنزيل قوله عزَّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، الَّذي يأمر فيه عباده أنْ ادخلوا في دين الله كافَّة، بمجموع حياتكم، بحيث لا يشذُّ عن سلطانه شيء، ولا يندُّ عن دائرة نفوذه جزء من أجزائها. فلا يكن من شأنكم في ناحية من نواحي حياتكم أنْ تتجرَّدوا من عبوديَّته الشاملة، فتحسبوا أنفسكم أحرارًا في شؤونكم، تختارون من المناهج والأوضاع ما تريدون، أو تتَّبعون من النظم والقوانين الوضعيَّة المستحدَثة ما تُحِبُّون.

إنَّ هذا هو معنى العبوديَّة الَّذي نبثُّه ونُعَمِّمه وندعو البشر كافَّة؛ المسلمين وغير المسلمين إلى قَبوله، والإيمان به، والإذعان له»[1].

شرح المطلب الثاني:

«والمطلب الثاني من هذه المطالب الثلاثة: أنَّنا نطالب الَّذين يؤمنون بالإسلام، أو يظهرون إيمانهم به: أن يزكوا أنفسهم من شوائب النفاق، وأعمالهم من التناقض.

فالمراد من النفاق، في هذه الكلمة أنْ يدَّعي الرجل الإيمان بنظامٍ خاصٍّ، ويتظاهر بالانتساب إليه، والتمسُّك بأذياله، ثُمَّ يعيش راضيًا مطمئنًّا في نظام للحياة مناقضٍ للنظام الَّذي يؤمن به، ولا يجِدَّ ويجتهدَ لقلب ذلك النظام المُعارِض لعقيدته الَّتي يؤمن بها، واستبدال النظام

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ١٢ ـ ١٤.

QaradawiBooks.com

الصالح به، بل ربَّما يبذل جهوده، ويستنفذ قُواه ومساعيه في توطيد دعائم ذلك النظام الفاسد الجائر، أو إقامة نظامٍ باطلٍ آخر يسدُّ مسدَّ ذلك النظام الجائر، الَّذي يعيش في كَنَفه هادئًا مغتبطًا.

فمثل هذا الطراز من النَّاس كمثل المنافق، فإنَّ الإيمان بنظام للحياة، ثُمَّ الاطمئنان بنظامٍ آخر مناقضٍ له، شيء يمجُّه السمع، ويأباه العقل، ولا يرضاه الشرع.

فمن مقتضيات الإيمان الأوَّليَّة: أنْ يودَّ المرءُ من صميم فؤاده أن تكون كلمة الله هي العليا، وأنْ يكون الدين كلُّه لله، وألَّا يبقى في الأرض منازعٌ ينازع حامل لواء الإسلام في دعوته، وأداء مهمَّته تجاه البشريَّة، وألَّا يهدأ له بالٌ، ولا يَقِرَّ له قرار، إذا رأى ما يُصيب ذلك الدِّين في صميمه، أو ينقض شيئًا من سلطانه، أو دائرة نفوذه.

وكذلك من أمارات الإيمان: أن يظلَّ الرجل قلقًا مضطربًا، لا يهنأ له بال، ولا يطيب له عَيْش، حتَّى يرى ذلك النظام العادل قد استردَّ أُبَّهته وسلطانه، وعادت أعلامه خافقة، وكلمته نافذة بين الناس. هذا من علامات الإيمان وأماراته الَّتي لا يكابر فيها إلَّا متعنِّتٌ أو جاحد.

وأمَّا أنْ يعيش المرء راضيًا مقتنعًا في ظلال النظم العصريَّة الباطلة، الَّتي لا سلطان فيها للدين، والَّتي جعلته منحصرًا في دائرةٍ ضيِّقة، كمسائل الزواج والطلاق والإرث، الَّتي لا تمسُّ تلك النظم السائدة الجائرة، ولا تتدخَّل في حدود إمرتها وسلطانها؛ أمَّا أنْ يعيش المرء مطمئنًّا بمثل تلك النظم، قانعًا مغتبطًا في كنفها، ولا ينبضُ له عِرْق، ولا يخفق له قلب، فلعَمْرُ الحَقِّ إنَّ مثل هذه الصنيعة من أمارات النفاق ومن صميمه من غير شكٍّ. وربَّما يجد مثل هذا الرجل عونًا ومساعدة

QaradawiBooks.com

من بعض الفقهاء والمشايخ، ويبقى مسلمًا في سجل الإحصاء ودواوين الإفتاء، لكن روح الشـريعة تأبى إلَّا أن تحكم علـى مثل هذه الصنيعة بالنفاق، ولو أفتى المفتون بخلاف ذلك، حرصًـا على المعاش الزهيد ومتاع الدُّنْيا الزائل.

فالَّذي نريده من المسـلمين والَّذين يتظاهرون بالإسلام، وندعوهم إليه: أنْ يُخلصوا دينهم لله، ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق. ومن حقِّ هذا الإيمان أنْ يتمنَّـى المرء في سـويداء قلبه أنْ تكـون نظم الحياة والملك ومناهج الاقتصاد والاجتماع، الَّتي جاءت بها رسل الله مرفوعة الرأس، عزيزة الجانـب، عالية الذُرا، نافذة الكلمة فـي الدُّنْيا، دون أنْ يُنازعها أحـد، أو يعوق عنها عائق، فكيف بمـن رضي بها ويعيش في كنفها راضيًا مغتبطًا؟

أمَّا أنْ يتجرَّأ على السـعي وراء توطيد دعائم النظـم الباطلة ورفع شأنها، فذلك أعرق في الضلال، وأشد ما يكون تماديًا في الغَيِّ، أعاذنا الله وإيَّاكم من شرور أمثاله.

وأمَّا «التناقض» الَّذي نطالب المسلمين جميعًا ـ من غير فرق بين من نشأ في بيتٍ مسلمٍ عريق، ومن دخل في الإسلام حديثًا ـ بتزكية أعمالهم من مظاهره، فهو أن يكون عمل الرجل مناقضًا لما يدَّعيه بلسانه، ويُظهره في أقواله.

كما أنَّه مـن التناقض فـي صميمـه: أنْ تختلف أعمـال المرء باختلاف شؤون الحياة، ويناقض بعضُها بعضًا. فليس من الإسلام في شـيءٍ أنْ يتَّبع الرجل أوامر الله، ويتمسَّك بأهداب الشريعة في ناحية من نواحـي حياته، ويعصـي أمـر الله، ويتعدَّى حدوده في شُـعَبها

QaradawiBooks.com

الأخرى. ومن مقتضيات الإيمان: أن يُسْلِم المرءُ نفسَه لله، ويدخل بمجموع حياته في كَنَف الدِّين الحقِّ، لا يعصي اللهَ في شيءٍ من أوامره، ولا يصدُر عنه شيءٌ إلَّا من تلك العبوديَّة الشاملة، والاتِّباع الكامل لدينه وشريعته.

ومن خصال المؤمن: أنْ يكون مصطبغًا بصبغة الله، لا يتأثَّر بشيء من مظاهر الدُّنْيا الفاتنة، ولا يتنكَّب الصراط السويَّ في شيءٍ من حياته وأعماله. ومن علاماته: أن يستغفر الله ويتوب إليه إذا بدرت منه بادرة تنمُّ عن الخطأ والعصيان، أو حدثت منه فلتةٌ قد تؤدِّي إلى الشرِّ والطغيان. أمَّا أنْ يدَّعي الرجل الإيمان بالله ويُصلِّي ويصوم ويؤدِّي شعائر معيَّنة محدودة، ثُمَّ يحسب نفْسَه حرًّا طليقًا، لا يتقيَّد بقَيْد، ولا يُذعن لأمر الله في دوائر الحياة العمليَّة الأخرى، فذلك هو التناقض الَّذي يُنافي العبوديَّة.

وما رأيك في هذه الشعوذة الَّتي يرتكبها المسلمون اليوم في جميع أنحاء العالم؟ يتشدَّقون بالإيمان بالله واليوم الآخر، ويتظاهرون بالإسلام، ويزعمون الاتِّسام به، ولكنَّهم حينما يدخلون في معترك الحياة العمليَّة، ويخوضون غمار السياسة، ويبحثون في مسائل الاقتصاد والاجتماع، لا تجد عليهم مسحةً من تعاليم الإسلام، ولا أثرًا من آثار اتِّباعهم للدِّين الحقِّ والشريعة الكاملة. أي شعوذة أكبر من هذه وأشنع؟ يقرُّون صباح مساء بأنَّهم: لا يعبدون إلَّا الله، ولا يستعينون إلَّا به. وبعد ذلك لا يتحرَّجون أن يتَّبعوا كلَّ ناعقٍ ويدينون به، نظريَّة أو فكرة، وأنْ يخضعوا لكلِّ جبَّار متكبِّر في أرض الله، ويستسلموا لأمره، ويُذعنوا لجبروته، فذلك هو التناقض وهذه علاماته.

QaradawiBooks.com

وهذه أسس جميع أمراض المسلمين الخُلُقِيَّة والاجتماعيَّة، وما دامت فيهم هـذه الأمـراض الخُلُقِيَّة الفتَّاكـة لا يُرجى إبلالُهـم[1] من مرض الانحطاط والذلِّ والتقهقر، ولا أمل في انتشالهم من وهدتهم الَّتي سقطوا فيها، ولا يزالون ينحدرون إلى هُوَّة سحيقة من الشقاء والمهانة.

وممَّا يذوب له القلب كمدًا وحزنًا: أنَّ علماء المسـلمين ومشايخهم والمالكين لأزِمَّة أمورهم جعلوهم يستيقنون منذ زمان أنَّهم يكفيهم من أمور دينهم أنْ يشهدوا شـهادة الحقِّ ويُصَلُّوا ويصوموا ويُؤَدُّوا المناسك والشعائر المحدودة المعيَّنة، وأنَّه لا يضرُّهم شيءٌ، ولا يمنعهم من سبيل النجاة، ولا يوصد فـي وجوههم أبـواب الجنَّة: إذا اقترفـوا بعد ذلك ما شاؤوا من المنكرات، أو اتَّبعوا من أرادوا من أئمَّة الكفر والضلال، أو اختاروا ما شاؤوا وشاءت أهواؤهم من الأفكار والنظريَّات الزائغة.

وقد بلغت بهم الوقاحةُ والجُرْأة على الدِّين: أنْ رأوا الاتِّسـام بسمة الإسلام تكفيهم مؤونة القيام بواجبات الشـريعة الملقاة على كواهلهم، حتَّى إنَّ أئمَّة الضلال منهم في هـذا العصر قد تقدَّموا في خطوة أخرى، وزعموا أنَّ التسمِّي بأسماء المسـلمين كافٍ لتدوين أسمائهم في سجلِّ الإحصاء الرسميِّ، كأنَّهم هم الَّذين نقل القرآن عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

ومن نتائج هـذا الداء العُضـال المتمكِّن من أجسـاد المسـلمين وأرواحهم: أن تراهم يدينون بالشيوعيَّة والنازيَّة والديمقراطيَّة وأمثالها من النظريَّات المستحدَثة المسـتورَدة من الشرق والغرب، ويتَّبعون خطوات الظَّلَمة الفجرة، الَّذين يتكبَّرون في أرض الله بغير الحقِّ، سواء أكانوا من

(١) أي برؤهم وشفاؤهم.

QaradawiBooks.com

قادة المسلمين أم غيرهم، ولا يتحرَّجون من ذلك، ولا قُلامة ظُفر، ولا يشعرون بأنَّ هذه النظريَّات وتلك الآراء تناقض الإسلام، وهؤلاء الطغاة المتكبِّرون يُناقض طريقُهم طريقَ الإسلام، وأنَّ مسالكهم المُعْوَجَّة والصراط المستقيم على طرفَيْ نقيضٍ.

فمن أهم مبادئ دعوتنا الَّتي نطالب بها كُلَّ مسلم: أن يكون حنيفًا مسلمًا، منقطعًا إلى الله، متجرِّدًا من كلِّ عصبيَّة، صارفًا بوجهه عن كلِّ فكرةٍ معارضةٍ لفكرة الحقِّ، وأن يظل مثابرًا على ذلك مواصلًا جهوده في الابتعاد عن الطرق المعوجَّة والمناهج الزائغة، الَّتي ما نزل الله بها من سلطان»[1].

شرح المطلب الثالث:

ثم يقول: «إذا عرفتم هذا، فلا يخفى عليكم ما نريد بالمطلب الثالث من مطالبنا الثلاثة الأساسيَّة وهو: دعوتنا لجميع أهل الأرض أن يُحدثوا انقلابًا عامًّا في أصول الحكم الحاضر، الَّذي استبدَّ به الطواغيت والفجرة، الَّذين ملؤوا الأرض فسادًا، وأن تنتزع هذه الإمامة الفِكْرِيَّة والعمليَّة من أيديهم، حتَّى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويدينون دين الحقِّ، ولا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا.

فتلك نتيجة طبيعيَّة لما أسلفنا من معاني العبوديَّة الكاملة، وإخلاص الدِّين لله، وكون الأنفس طاهرة من شوائب النفاق والأعمال، بريئة من مظاهر التناقض، كما لا يخفى على اللبيب المتفطِّن أنَّ ذلك لا يتأتَّى إلَّا بإحداث انقلاب عامٍّ في نظام الحياة الحاضر، الَّذي يدور قُطْبه حول

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ١٤ ـ ١٩.

QaradawiBooks.com

رَحَى الكفـــر والإلحاد والفســـوق والعصيان، والَّذي يديـــره ويُدَبِّر أمره ويسير شـــؤونه رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واســـتنكفوا عن عبادته، واستكبروا في أرضه بغير الحقِّ.

فما دامت أزمة أمور العالم بأيدي هؤلاء، وما دامت العلوم والآداب والمعارف والصحف والتشـــريع والتنفيذ والشـــؤون الدوليَّـــة والماليَّة والمســـائل التجاريَّة والصناعيَّة تتحرَّك دواليبها بتوجيهاتهم، وتتمشى عجلاتها حســـب إرشادهم ورغباتهم، لا يمكن للمســـلم أنْ يعيش في الدُّنْيا مسلمًا، متمسكًا بمبادئه، مُتَّبِعًا الشـــريعة الإلٰهيَّة، مُنَفِّذًا لقوانينها في حياته العمليَّة. فإنَّه من المســـتحيل أنْ يتبع الرجـــل الدين الإلٰهي الكامل المحيط بجميـــع نواحي الحياة وشـــعبها، وهو يعيش في بلاد تدين لقانون غير قانون الشـــريعة، وتســـير على منهاج غيـــر المنهاج المرضيِّ عند الله، بل يتعذَّر عليه أنْ يتعهَّد تربية أولاده، وتلقينهم مبادئ الدِّين الإلٰهي وتعاليمه، وأنْ ينشـــئهم على الأخلاق المرضيَّة والآداب الإســـلاميَّة الزكيَّة؛ لأنَّ نظام الكفر والإلحاد الَّذي يعيش في كنفه يسدُّ في وجهه ســـبل التربية الإســـلاميَّة، والبيئة الكافرة الَّتي يتنسَّم هواءها تأبى عليه إلَّا أنْ يحذو حذو القوم، ويتخلَّـــق بأخلاقهم، ويتخلَّى عن مقومات دينه وخلقه تدريجيًّا.

وزدْ على ذلك أنَّه من واجب العبد المســـلم المخلص لله: أنْ يُطَهِّر أرض الله من أدناس الفساد والطغيان، ويقيم فيها نظامًا عادلًا على دعائم الصلاح والرشاد.

ومن الظاهر البيِّن: أنَّه لا يتســـنَّى الظَّفَر بهذا المقصد، ولا تنال هذه البُغْية الســـامية، مـــا دام زمام أمور العالـــم بيد الطغاة والمفســـدين في

QaradawiBooks.com

الأرض، يديرونه كيفما يشاؤون، ويتصرَّفون في شؤونه حسَب ما يريدون، وقد تحقَّق لنا بالتجربة في هذا الزمـــان أنَّ المتكبِّرين في أرض الله بغير الحقِّ، السادرين في غلوائهم بغيًا وعدوانًا: هم العقبة الكبرى في سبيل إقامة نظم الصلاح والنصفة، وأنَّهم هم الَّذين يحولون دون توطيد دعائم السلام والعدل. وكذلك ثبت لنا باليقين والبرهان والمشاهدة أنَّه لا أمل في صـــلاح العالم، ولا رجاء في اســـتقامة الأمور على موازين الرشـــاد والحقِّ، ما دام أولئك الطغاة المنحرفون في الله ورســـوله يتحكَّمون في شؤون الدولة، ويُديرون أمورها، ويشرفون على جليلها وصغيرها، فمن مقتضيَّات إسلامنا وعبوديَّتنا الخالصة لله الواحد الأحد أن نجد ونجتهد ونبذل الجهود المتواصلة، والمساعي المتتابعة للقضاء على زعامة الكفر والضلال، واجتثاث النظم الباطلـــة من جذورها، وإحلال الإمامة العادلة والنظام الحقِّ محلَّها.

ورُبَّما يُســـائلني القارئ في هذا المقام: فكيف السبيل إلى الانقلاب في الزعامة والإمامة؟ فالظاهر أنَّ هذا الانقلاب لا يحصل بمجرَّد الأمانيِّ والأحلام المعســـولة، ومن سُـــنَن الله في أرضه أنَّها لا بدَّ لها من رجال يسوسون أمرها، ويدبرون شـــؤونها. وهذا التدبير وتلك السياسة بحاجة إلى صفات وخُلُق، لا بدَّ لكلِّ من يريد إدارة شؤون العالم وتدبير أمرها من أنْ يتَّصف ويتحلَّى بها.

وكذلك من سُنَّة الله في خَلْقه: أنْ يُفَوِّض تدبير أمور الأرض وتسيير شؤونها إلى من شاء من ذوي الصفات المطلوبة والكفاءات اللازمة، إذا لم تكن في أرضه جماعة مؤمنة صالحة متَّصفة بتلك الصفات، ومتخلِّقة بتلك السجايا، الَّتي لا بدَّ منها لكلِّ من يتبوَّأ منصب الزعامة والإمارة.

QaradawiBooks.com

وأمَّا إذا وجدت جماعة صالحة مؤمنة بالله ورسـوله، متحلِّية بتلك الأوصاف والأخلاق اللازمة لا بدَّ منها للقيام بالملك، ولا مندوحة عنها في تسيير شـؤون العالم. إذا وجدت مثل هذه الجماعة، الَّتي لا تتحلَّى بتلك السجايا اللازمة فحسْـب، بل تفوق فيها الطغاة المُسْتَكْبِرين الَّذين استبدُّوا بمناصب الأمر والحكم، فلا نرى المشيئة الربَّانيَّة والسنن الإلٰهيَّة بمثابة من حبِّ الظلم والفساد أن تستأثر بأولئك الجائرين المفسدين في الأرض، وتدع أزِمَّة أمور العالم تبقى في أيديهم الآثمة الغاشمة، يعبثون بها كما يريدون وتريد أهواؤهم وشهواتهم.

فلا تنحصر دعوتنا إذن في التمنِّي والرجاء والابتهال إلى الله أنْ يقطع دابر الجور والفسـاد فـي الأرض، ويُفَوِّض أمـر دُنياه إلـى المؤمنين الصالحين من عباده، بل دعوتنا للعالم بأسـره أنْ يُعنـى ويهتمَّ بإعداد جماعةٍ صالحةٍ مؤمنة بالله ورسوله، مستمسكة بالأخلاق الزكيَّة الفاضلة في جانب، ومتَّصفة بالصفات والمزايا السـامية، متحلِّية بالسجايا الَّتي لا بدَّ منها لتدبير شؤون الدُّنْيا، وتنظيم أمور العالم في جانب آخر.

لا تتَّصف هذه الجماعة الصالحة بتلك المزايا والطباع فحسْـب، بل تعلو وتفوق أئمَّة الكفر والضلال وأعوانهم، الَّذين تراهم مستبدِّين بأزِمَّة أمور الدُّنْيا اليـوم، في تلك المواهـب والخِلال والمؤهـلات اللازمة للاضطلاع بأعباء المُلْك وتدبير شؤون العالم»[1].

مؤلِّف الكتب والرجال:

كان الأستاذ المودودي أحد الرجال القلائل الَّذين جمعوا بين الفكر والحركة، أو بين العمل العلمي والعمل التنظيمي والدعوي.

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ١٩ ـ ٢٣.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والمعروف أنَّ الَّذين يشتغلون بالعمل الحركي والدعوي والسياسي، قلَّما يجدون وقتًا للعمل العلمي الموثَّق الأصيل، وعذرهم أنَّ مُهِمَّتهم تأليف الرجال لا تأليف الكتب، فهم إذا ألفوا الرجال كما يَنْشُدون، ألَّف الرجالُ الكتبَ المنشودة بعد ذلك.

نجد السيِّد جمال الدين الأفغاني قليلَ الإنتاج العلميِّ؛ لأنَّ عمله الثوريَّ والسياسي، وتعرُّضَه للتنقُّل بين الأقطار، لم يدعْ له فرصةً للكتابة والتأليف، إلَّا ما كان من «الردِّ على الدهريِّين»، ومقالات «العُرْوة الوُثقى» ونحو ذلك.

ونجد تلميذه وصديقه الأستاذ الإمام محمَّد عبده أغزر إنتاجًا، وأعمق فكرًا، وأوسع علمًا.

ونجد تلميذهما الإمام محمَّد رشيد رضا قد ملأ الآفاق علمًا.

وكذلك نجد الإمام الشهيد حسن البنَّا قد شغلته الدعوة والعمل الحركيُّ منذ فجر شبابه، ومع هذا ترك كتابات كثيرة، بعضُها رسائل، وبعضُها مقالات، وبعضُها بيانات ونشرات، وإن كانت للأسف لم تجمع بعد[1].

إلَّا أنَّه في أواخر حياته شعر بأنَّ الجانب العلمي في الحركة يحتاج إلى تأصيل وتعميق، فأصدر مجلة «الشِّهاب» لتَخْلُف «المنارَ» في رسالتها العلميَّة والفِكْرِيَّة التجديديَّة، وكان يُحرِّر بنفسه أكثر أبوابها الأساسيَّة: من التفسير، ومصطلح الحديث، والعقائد، والتاريخ، وأصول الإسلام كنظام اجتماعيٍّ.

وأحسب ـ ولا أتألَّى على الله ـ أنْ لو طال به العمر، لخلَّف تُرَاثًا علميًّا له شأن، ولكنَّ أجلَ الله إذا جاء لا يؤخَّر.

(١) قد جمع بعضها الأستاذ جمعة أمين رَحِمَهُ اللَّهُ، وتلميذنا عصام تليمة.

QaradawiBooks.com

وهنا نجد الإمام المودودي «ألَّف» الرجـال، و«ألَّف» الكُتُب جميعًا، ولم يشغله المجال الدعويُّ والحركيُّ عن المجال العِلْمي والفِكْري، وترك لنا في كلا الميدانَيْن ثروةً مرموقة، انتفع بها المسلمون في أنحاء العالم.

فقد تُرْجِمَتْ كتب الأستاذ المودودي ورسائله إلى اللغات العالميَّة، وإلى لغات المسلمين المختلفة، واتَّسع نطاق النفع بها، والحمد لله.

من هذه الكتب: تفسيره القيِّم، الَّذي عكف عليه سنين طويلة، حتَّى وفَّقه الله لإتمامه، وقد سمَّاه «تفهيم القرآن».

ومنها: الكُتُب الَّتي تشرح الإسلام وأصوله، مثل: «مبادئ الإسلام»، و«الإيمان بالله واليوم الآخر».

ومنها: الكتب الَّتي عالج فيها قضايا كبيرة تُمَيِّز الإسلام عن الحضارة الغربيَّة، والَّتي تتعرَّض لنقد الغربيِّيـن، بل لاتِّهامهم، مثل: «الحجاب»، و«الربا»، و«الجهاد»، و«نحن والحضارة الغربيَّة».

ومنها: الكتب الَّتي تشـرح أصـول دعوته وحركته، مثـل: «منهاج الانقلاب الإسلامي»، و«النظريَّة السياسـيَّة»، و«الدِّين القَيِّم»، و«شهادة الحـقِّ»، و«نظام الحياة في الإسـلام»، و«الأسـس الأخلاقيَّـة للحركة الإسلاميَّة»، و«واقع المسـلمين وسـبل النهوض بهم»، و«موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه».

ومنهـا: الكتب الَّتي تعالج مشـكلات الحيـاة المختلفة على ضوء الإسلام، مثل: «مشكلات الاقتصاد وحلُّها في الإسلام»، و«ملكيَّة الأرض في الإسلام»، و«النظام الاقتصادي في الإسلام مقارنًا بالنظم المعاصرة»، و«تدوين الدستور الإسلامي»، و«الحكومة الإسلاميَّة».

QaradawiBooks.com

الجانب الربَّاني في حركة المودودي:

لم يكن الجانب الربَّاني ـ أو «الرُّوحي» كما يُسَمِّيه بعض النَّاس ـ مهملًا، أو ضعيفًا في دعوة المودودي وحركته، وتربية أفراد جماعته. كما يُخَيَّل ذلك لبعض الناظرين من بعيد؛ وذلك لغلبة الطابع العقلي على أتباع الأستاذ المودودي، ولما يظهر في كتبه ورسائله وخطاباته وتوجيهاته، وغلبة التوجُّه السياسي على حركة جماعته، واعتبارها جماعة سياسيَّة.

بَيْدَ أنَّ الإنصاف يقتضينا أنْ نقول: إنَّ الرجل لم يُغْفِل هذا الجانب، ولا كان في زوايا النسيان، أو على هامش الإدراك والشعور عنده، أو في تكوين جماعته، بل كان له شأنٌ أيُّ شأن في التوجيه العامِّ، والتكوين الخاصِّ، وبهذا لم يطغَ «المودودي» المُفَكِّر، على المودودي «الداعية المربِّي».

وقد قال أبو الأعلى المودودي ردًّا على سؤال وجَّهه له أحد الصحفيِّين: إنَّ الطريق أمامك صعب، وإنَّ أملك في الإصلاح ضعيف، فماذا أعددت للمشاقِّ والمصاعب الَّتي ستواجهها في طريقك؟

فقال أبو الأعلى: أعددت للمعوقات دينًا، وللشدة يقينًا، وللظلم صبرًا، وللسجون والمعتقلات قرآنًا وذكرًا، وللمشانق: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ومن دلائل اهتمام المودودي بالجانب الربَّاني في دعوته، وتربية أنصاره وأتباعه على الإيمان به والحرص عليه، وجهاد الأنفس من أجله:

QaradawiBooks.com

ما كتبه عن الصفات اللازمة للعاملين في الحركة الإسلاميَّة[١]، وبحسْبِنا أن نُسجِّل هنا بعض فقرات من كتابه المنشور بالعربيَّة تحت عنوان: «تذكرة دعاة الإسلام»، تحت عنوان «الصفات اللازمة للعاملين للحركة الإسلاميَّة»، يقول:

«وأمَّا أقلُّ الصفات اللازمة الَّتي يجب أنْ يكون القائمون بهذه الدعوة مُتَحَلِّين بها، فهي على ثلاثة أصناف:

صفات يجب أن توجد في كلِّ فردٍ منهم بصفته الشخصيَّة.

وصفات لا بدَّ لهم منها، لتكوين حياتهم الجماعيَّة والمحافظة عليها.

وصفات يجب أن يكونوا عليها للمجاهدة في سبيل الله.

١ ـ الصفات الفرديَّة (جهاد النفس):

أمَّا الصفة الأساسيَّة من الصفات الفرديَّة، فهي أنْ يُقبل كلُّ فردٍ منَّا على نفسه ويجاهدها حتَّى يجعلها مطيعة لله ورسوله، خاضعة لكلِّ ما تتلقَّى عنهما من الأوامر والنواهي، وذلك ما قد بيَّنه الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «**المجاهدُ من جاهد نَفْسَه لله**»[٢]. أي قبل أنْ تخرجوا لمقارعة أعداء الله ومقاتلتهم في العالم الخارجي، عليكم أنْ تبذلوا ما تستطيعون من الجهد المستمرِّ لمقارعة ذلك المارد الَّذي هو كامن في داخلكم، ولا ينفكُّ يطالبكم بمعصية الله ورسوله والخروج على أحكامهما.

(١) من خطاب الأستاذ المودودي ألقاه في الاجتماع السنوي للجماعة الإسلامية، الذي عُقد في دار الإسلام بالهند، في شهر مارس ١٩٤٤م. (خليل الحامدي).

(٢) رواه أحمد (٢٣٩٦٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في الجهاد (١٦٢١)، وقال: حسن صحيح. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٤٩)، عن فضالة بن عبيد.

QaradawiBooks.com

فمـا دام يتربَّى فيكم هذا المـارد، وينزلكم على مطالبـه المتنافية مع مرضاة الله، فإنَّه من العبث أنْ تَشْـهَروا الحرب على أعداء الله في الخارج، فإنَّه ما مثل ذلك إلَّا كمثل أنْ تكون في بيتكم زجاجة من الخمر، وتحاربون النَّاس في الخارج لمنعهم من شـرب الخمر، الحقيقـة أنَّ هذا التناقض لو وجد بين أقوالنا وأعمالنا، فإنَّه مُدَمِّر لكياننا، خانق لحركتنا، ومهلك لحياتنا الاجتماعيَّة، فعليكم أوَّلًا أنْ تستسلموا لله، وتتجرَّدوا عن كلِّ حُرِّيَّة لذواتكم إزاء شريعته تعالى، ثُمَّ تخرجوا تطالبون الآخرين بطاعته»[(١)].

الهجرة إلى الله:

ثم قال: «وبعد درجة الجهـاد تأتي درجة الهجـرة[(٢)]. ليس المعنى الحقيقي للهجرة أنْ تهجروا دياركم، وإنَّما هـو أنْ تهجروا معصية الله، وتفرُّوا منها إلى طاعة الله ومرضاته.

والمهاجر الحقيقي إذا كان يخرج من بيتـه؛ فلأنَّه لا يجد في وطنه مجالًا لقضاء حياته وَفْقَ أحكام الله ورسـوله، أمَّا إذا خرج رجلٌ من بيته

---

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ٤٥، ٤٦.

(٢) المفروض إسلاميًّا: أنَّ الهجرة تسبق الجهاد، فالمؤمن يهاجر ثم يجاهد، كما هو ظاهر القرآن والسُّنَّة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وآيات أخرى في القرآن، وأحاديث صحيحة، مثل ما روي عن عمرو بن عَبَسة، قال: قال رجل: يا رسولَ الله، ما الإسلام؟ قال: «**أن يُسلم قلبُك لله** ﷻ، وأن يَسلَم المسـلمون من لسانك ويدك». قال: فأيُّ الإسـلام أفضلُ؟ قال: «**الإيمان**». قال: وما الإيمان؟ قـال: «**تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله، والبعث بعد المـوت**». قال: فأيُّ الإيمان أفضل؟ قال: «**الهجـرة**». قال: فما الهجرة؟ قال: «**تهجر السـوء**». قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «**الجهاد**». قـال: وما الجهاد؟ قال: «**أن تقاتل الكفَّـار إذا لقيتهم**». رواه أحمد (١٧٠٢٧)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. وقـال المنذري في الترغيب والترهيب (١٦٨٧): إسناد صحيح ورواته محتج بهم في الصحيح.

QaradawiBooks.com

ومع ذلك لم يدخل في طاعة الله، ولم يُقْلِع عن معصيته؛ فإنَّما قد ارتكب حماقة، وما استفاد شيئًا ممَّا كابد في هجرته من محنةٍ ومشقَّة، وهذا ما بيَّنه الرسول ﷺ في غير واحدٍ من أحاديثه.

قيل: أيُّ الهجرةِ أفضلُ يا رسولَ الله؟

قال: «**أنْ تَهْجُرَ ما كره ربُّك**»[١].

فواضح من هذا أنَّ المرء ما دام مصابًا بمعصية الله، فإنَّ هجره لوطنه لا قيمة له ولا وزن عند الله، ولذا فإنِّي أريد منكم أنْ تحاربوا القوى العاتية في داخلكم، قبل أنْ تحاربوها في الخارج، وأنْ تهتمُّوا بذات أنفسكم وتسخيرها لطاعة الله في المكره والمنشط، قبل أنْ تبذلوا جهودكم لإدخال الكفَّار الاصطلاحيِّين في الإسلام.

أو عليكم ـ إذا قلنا بكلمات أوضح ـ أن تكونوا كالفرس المربوط بالحبل إلى وتد مغروز بالأرض، فهو مهما جال، ليرجع[٢] أبدًا إلى ذلك الوتد، كما يقول ﷺ: «**مثل المؤمن ومثل الإيمان، كمثل الفرس في آخِيَّته، يجول ثُمَّ يرجع إلى آخِيَّتِه**»[٣]. فمثل هذا الفرس يكون في شأنه مختلفًا كلَّ الاختلاف عن ذلك الفرس الطليق، الَّذي يجول في كلِّ

(١) رواه أحمد (٦٤٨٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. والنسائي في البيعة (٤١٦٥)، والحاكم في الإيمان (١١/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) بالمطبوع الذي بين أيدينا: لا يرجع. وما أثبتناه هو ما يقتضيه السياق.

(٣) رواه أحمد (١١٥٢٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن حبان في الرقائق (٦١٦)، وأبو يعلى (١٣٣٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٤): رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبد الله بن الوليد التجيبي، وكلاهما ثقة. عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

ميدان، ويدخل في كلِّ حقل، وينقضُّ بكل جشع على كلِّ مكانٍ يرى فيه كلأً أخضر. فعليكم أنْ تُجَرِّدوا أنفسكم من صفات هذا الفرس الطليق، وتُرَوِّضوها على صفات الفرس المربوط بالحبل»[1] اهـ.

دعوة المجتمع إلى الله:

ثمَّ بعد ذلك يحُثُّ المودودي أتباعه على سلوك طريق الدعوة إلى الله، وهو الطريق الَّذي سمَّاه القرآن: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ في قوله تعالى لرسوله في سورة الفرقان: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وهو جهاد البيان والتبليغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالَّتي هي أحسن وقول الحقِّ وإنْ كان مرًّا.

ومن تنبيهات المودودي المهمَّة والنيِّرة هنا قوله لأتباعه: «ولكن ينبغي ألَّا يشرع في هذا الصراع والجهاد إلَّا بالعقليَّة الَّتي يُعالج بها الطبيب مريضه، فإنَّه في حقيقة أمره لا يحارب المريض، وإنَّما يحارب ما فيه من المرض، ويكون كلُّ سعيه متَّصفًا برُوح النصح والمواساة، فهو إنْ كان يُجَرِّع المريضَ أدوية مُرَّة، أو يجري العمليَّة الجراحيَّة في عضوٍ من أعضائه، فعلى إخلاص منه ونصح للمريض، لا على عداوةٍ له، وإمَّا يكون كلُّ حَنَقه على المرض لا على المريض، فهكذا يجب أنْ تَدْعوا إخوانكم الواقعين في الغفلة والضلالة إلى طريق الرُّشد والهُدى، فلا يشعرون أبدًا بأنَّكم تنظرون إليهم بنظر الازدراء والاستخفاف، أو أنَّكم تُضمرون العداوة لأشخاصهم، وليجدوا فيكم المواساة والإخلاص والمحبَّة والأخوة الإنسانيَّة.

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ٤٦، ٤٧.

QaradawiBooks.com

إنَّه لا يكــون القيام بالدعــوة الحقيقيَّة ـ كما قلتُ لكــم باختصارٍ في مؤتمرنا السابق ـ بالمناظرات الخَطابيَّة والكتابيَّة، فإنَّ هذه المناظرات طرق سطحيَّة للدعوة، وضررُها أكبر من نفعها، وإنَّما الطريق الحقيقي المُجْدي للدعوة: أنْ تكونوا مظاهر مجسَّدة، ونماذج حيَّة للدعوة، فحيثما يقع عليكم نظر الناس، فليعرفوا من ســموِّ ســيرتكم وطهارة أخلاقكم: أنَّ هؤلاء هم السالكون لسبيل الله، وفي ذلك قال النبيُّ ﷺ: «**فإذا رؤوا ذُكِرَ الله**»[1][2] اهـ.

وصايا وتوجيهات[3]:

وتحت عنوان «وصايا وتوجيهات» تحدَّث الإمام المودودي حديثًا قويًّا عميــق التأثير فقال: «ويحلــو لي أنْ أتقــدَّم إليكم ـ ونحن في الجلســة الختاميَّة من اجتماعنا السنوي الَّذي اســتغرق أربعة أيام ـ بطائفة من الوصايــا والتوجيهات اللازمــة الَّتي لا بدَّ لنــا منها في مواصلة المعركة، كســلاحٍ خُلُقيٍّ، وزادٍ رُوحيٍّ، حتَّــى لا تتَّجه كلُّ خطوة من خطواتنا في المســتقبل إلَّا إلى الطريق الصحيح، وبصورة تُقَرِّب إلينا غايتنا».

ويُهِمُّنــا أن ننقل عنه هنــا ما قاله عن ضرورة «الاتصــال بالله»، حتَّى لا يظــنَّ الظانُّــون أنَّ المــودودي كان رجــلًا «عقلانيًّــا»، وكان صوت «الرُّوحانيَّة» عنده خافتًا، وذلك ناشئ عن القراءة الناقصة لتُراث المودودي.

---

(١) رواه أحمد (٢٧٥٩٩)، وقال مخرِّجوه: حسن بشواهده. وابن ماجه في الزهد (٤١١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٢٣)، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٤٦)، عن أسماء بنت يزيد.

(٢) تذكرة دعاة الإسلام صـ ٤٨، ٤٩.

(٣) ألقى الأستاذ المودودي تلك الوصايا والتوجيهات في ختام الاجتماع السنوي الذي عقدته الجماعة الإسلامية في١٣ من نوفمبر ١٩٥١م بمدينة كراتشي. (خليل الحامدي).

QaradawiBooks.com

الاتِّصال بالله:

قال المودودي: «إنَّ أوَّل شيء ما زال الأنبياء والخلفاء الراشدون وصلحاء الأُمَّة يوصون به أتباعهم وأصحابهم عند كلِّ مناسبة، هو أن يتَّقوا الله، ويَعْمُروا قلوبَهم بحبِّه، ويتقرَّبوا إليه بطاعته وعبادته. وهذا ما أوصيت به رفاقي دائمًا، ولا أزال أوصيهم به إذا ما سنحت لي الفرصة لذلك في المستقبل، اتباعًا لسُنَّة الأنبياء، وأسوةً بالخلفاء والصلحاء، فإنَّ هذا ما يجب أنْ يكون مُقَدَّمًا على غيره، ما في ذلك شكٌّ.

فالإيمان بالله مقدَّم على غيره في العقيدة، والاتِّصال بالله والتقرُّب إليه مُقَدَّم على سواه في العبادة، وخشية الله في السرِّ والعلانية مقدَّم على سواه في الأخلاق والعادات، وطلب مرضاة الله مقدَّم على سواه في المعاملات والأعمال. وبالجملة فإنَّ صلاح حياتنا إنَّما هو منحصرٌ في ألَّا يكون مقصودُنا وراءَ كلِّ ما نبذل من الجهود والمساعي إلَّا ابتغاء مرضاة الله، ولا سيَّما هذا الأمر الَّذي قد قمنا لتحقيقه بصورة جماعيَّة، فإنَّه لا يمكنه أنْ يتَّقدم ويؤتي ثمراته إلَّا باعتمادنا على اتِّصالنا بالله ﷻ، فسيكون قويًّا على قدر ما يكون اتصالنا بالله قويًّا محكمًا، وضعيفًا على قدر ما يكون اتِّصالنا بالله ضعيفًا.

من الظاهر الَّذي لا خفاء فيه أنَّ كلَّ عَمَلٍ يقوم به الإنسان في هذه الدُّنْيا، دينيًّا كان أو دنيويًّا، لا يَحْفِزه عليه ولا يُقدمه في سبيله إلَّا الغرض الَّذي لأجله يقوم بذلك العمل، ولا ينشأ فيه الجِدُّ والكَدُّ والجهد إلَّا إذا كان ذلك العمل آخذًا عليه لُبَّه مُلْتَحِمًا مع رُوحه وقلبه، وكان متحمسًا لتحقيقه في واقع الأمر. فالَّذي يعمل ـ مثلًا ـ لنفسه، لا يُمكنه أنْ يعبد نفسه بدون أنْ يكون فيه الأَثَرة وحبُّ الذات، وهو على قدر ما يكون

QaradawiBooks.com

شـــديدًا في حبِّ النفس، يخدمها بكلِّ إخلاصٍ وحماسة وجِدٍّ واجتهاد. والَّذي يعمل لذُرِّيَّته، يكون مأخوذًا بحبِّهـــا، ولأجل هذا الحبِّ يُضحِّي براحته وماله ونفسه في صلاح ذريَّته، ولا يُخاطر بدُنياه فقط، بل يخاطر بآخرته أيضًا في سبيل أن يترك ذريَّته بعده مترفِّلة في النعيم والرَّفَاه ورَغَدِ العيش. والَّذي عمل لأُمَّته ـ أو وطنه ـ يكون مُشْـــبَعًا بحبِّها، لذا يحتمل الخسائر والأضرار الفادحة، ويعاني مصاعب السجن والاعتقال ومحنهما، ويصل ليله بنهاره، وقد يُضَحِّي بنفسه ونفائسه في سبيلهما.

فأنتم إن لم تكونوا قد قمتم بأمر هذه الدعوة لنفوســكم وأهوائكم، ولا يحملكم عليه غرض من أغراضكم العائليَّة، ولا تطمحون من ورائه إلى مصلحة من مصالحكـــم القوميَّة أو الوطنيَّة، وإنَّمـــا الَّذي تقصدونه وتطمعون فيـــه بقيامكم بأمر هذه الدعوة هـــو أنْ تظفروا بمرضاة الله في الدُّنْيا والآخرة، فلا يصعُبَنَّ عليكم إدراك أنَّه ما دامت علاقتكم بالله غير قويَّة، لا يمكن أنْ يكتب لهذا الأمر شـــيء مـــن التقـــدُّم والرُّقِيِّ، وإنَّه لا يمكن أنْ يقترن بشـــيءٍ من الجِدِّ والإخلاص والتجرُّد والحماسة، إلَّا إذا أصبحت كلُّ مطامعنا مركَّزة على إعلاء كلمة الله.

إنَّه لا يكفي أنْ تكون للمشركين في هذا الأمر علاقة بالله؛ بل يجب ألَّا تكون لهم علاقةٌ إلَّا بالله وحـــده، لا تكون علاقتهم به ﷻ علاقة من علاقاتهم، بل يجب أنْ تكون هي وحدها علاقتهـــم الحقيقيَّة الوحيدة، فيكون كلُّ تفكيرهم مُتَّجِهًا إلـــى أنْ لا تنقص علاقتهم بالله، ولا يعتريها شيءٌ من الوهن، بل تتقوَّى وتزداد مع مرور الأيام.

لا خلاف بيننا أنَّ علاقتنـــا بالله هي رُوح هذا الأمـــر وعماده، وإنِّي أحمَدُ الله ﷻ وأشـــكره على أنْ ليـــس في جماعتنا أحـــدٌ يَغْفُل عن هذه

QaradawiBooks.com

الحقيقة. ولكن هناك طائفة من التساؤلات قد تُقلق أكثر أعضاء الجماعة، هي: ما هو المراد الحقيقي بعلاقة الإنسان بالله؟ وكيف له أنْ يعمل على تقوية هذه العلاقة وتنميتها؟ وكيف له أنْ يتبيَّن هل حقًّا هو مُتَمَتِّع بالعلاقة بالله، وإن كان، فإلى أيِّ مدًى؟

وقد شعرت مرارًا بأنَّ أعضاء الجماعة ربَّما لا يعرفون لهذه الأسئلة جوابًا واضحًا، يجدون أنفسهم في صحراء لا معالم فيها، ولا إشارات تُبَيِّن لهم الطريق واضحًا إلى غايتهم المقصودة، فلا يعرفون كم قطعوا من الطريق، وكم من مراحلَ لا تزال أمامَهم لقطعها، ولأجل هذا فإنَّ كثيرًا منهم يَضِلُّون في طيَّات تصوُّرات مبهمة، وبعضهم يميلون إلى طرق غير موصلة إلى غايتهم المقصودة، وبعضهم يتعذَّر عليهم التمييز بين الأمور المتعلِّقة بغايتهم من قريب أو بعيد، وبعضهم تعتريهم الحَيْرة والوجوم[1]. ولذا فإنِّي لا أريد اليوم الاكتفاء بنصيحتكم بأنْ تتَّصلوا بالله، وتتقرَّبوا إليه، بل سأحاول ـ على قَدْر جُهْدي وعلمي ـ أنْ أردَّ لكم على ما مرَّ من الأسئلة».

معنى العلاقة بالله:

ثُمَّ يشرح المودودي مفهوم العلاقة أو الاتِّصال بالله تعالى، شرح المربِّي العارف البصير، فيقول: «المراد بعلاقة الإنسان بالله، على حسب القرآن الكريم: أنْ تكون حياته ومماته وصلاته ونسكه لله تعالى وحده: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وأن يعبده مخلصًا له الدِّين حنيفًا.

(١) الوجوم: حزن يسكت صاحبه.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد شـــرح النبيُّ ﷺ في عدَّةٍ من أقواله هذه العلاقة بين العبد وربِّه، بحيث لم يترك غبارًا علـــى مفهومها، فإذا تتبعنـــا أقواله عليه الصلاة والسلام، علمنا أنَّ معنى العلاقة بالله «**خشية الله في السرِّ والعلانية**»(١).

و«**أن تكون بما في يدي اللهِ أوثقَ منك بما في يدَيْك**»(٢).

وأن تلتمس رضا الله بســـخط الناس، خلافًا لأن تلتمس رضا النَّاس بسخط الله(٣).

ثم إنَّ هذه العلاقة إذا توثقت، حتَّى يكون حبُّ الإنســـان وعداوته، ومنعُه وعطاؤه، كلُّه لله وحده، دون أنْ تشوبه شـــائبةٌ من رغبة النَّفس أو كُرْهِها، فمعنى ذلك أنَّه قد اســـتكمل علاقته بالله، «**من أحبَّ لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(٤).

ثُمَّ عليكم أنْ تســـتحضروا في كلِّ وقتٍ مـــن أوقاتكم دعاءكم الَّذي تدعون به كلَّ ليلة في آخر ركعة من صلاتكم الوتر، أفلا تقولون: «**اللهمَّ إنَّا نســـتعينك، ونســـتهديك، ونســـتغفرُك، ونؤمنُ بك، ونتوكَّل عليك، ونُثْنِي عليك الخيرَ كُلَّه، نشكرُك ولا نكفرُك، ونخلعُ ونتركُ من يَفْجُرُك،**

(١) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٦٥٤): هو مروي عن جماعة من الصحابة وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩). عن أنس بن مالك.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (١٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٩٧)، عن يونس بن ميسرة.

(٣) إشارة إلى الحديث: «**مَن التمس رضاء اللهِ بسخط الناس، كفاه اللهُ مؤنة الناس، ومَن التمس رضاء الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس**». رواه الترمذي في الزهد (٢٤١٤)، وابن حبان في البر والإحسان (٢٧٦)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣١١)، عن عائشة.

(٤) رواه أبو داود في الســـنة (٤٦٨١)، والطبراني (١٣٤/٨)، وقـــال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٩): حسن صحيح. عن أبي أمامة.

QaradawiBooks.com

اللهمَّ إيَّاك نعبدُ، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونَحْفِد[١]**، نرجو رحمتَكَ ونخشى عذابَكَ، إنَّ عذابك الجِدَّ بالكفار مُلْحق**»[٢]؟ عليكم أنْ تتدبَّروا كلمات هذا الدعاء، وتروا أيَّ علاقة تقرن بإبرامها بينكم وبين الله في كلِّ ليلة من لياليكم.

وقد انعكست صورة هذا العلاقة أيضًا في ذلك الدعاء الَّذي كان يدعو به النبيُّ الكريم ﷺ إذا قام يُصَلِّي بالليل، فكان عليه الصلاة والسلام يقول في هذا الدعاء مخاطبًا ربَّه جلَّ وعلا: «**اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ**»[٣].

طريقة توطيد العلاقة بالله:

ويزيد المودودي الأمر بيانًا وتوضيحًا في طريقة ترسيخ الصلة بالله، فيقول:

أمَّا تنشئة هذه العلاقة بالله، فليس لها إلَّا طريق واحد هو: أن يؤمن الإنسان بالله وحده ربًّا وإلٰهًا لنفسه ولسائر المخلوقات في السماوات والأرض، ولا يعتقد[٤] صفات الألوهيَّة وحقوقها وصلاحياتها إلَّا مختصَّة به سبحانه وتعالى، وأنْ يُطَهِّر قلبه من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشرك.

فإذا ما أتمَّ الإنسان كلَّ هذا على هذا الوجه، انعقدت العلاقة بينه وبين الله تبارك وتعالى.

---

(١) نحفد مضارع حفد أي: نسرع ونخدم.

(٢) هذا هو القنوت المأثور عن ابن مسعود رضي الله عنه، ويلتزم الأحناف قراءته بعد القيام من ركوع الركعة الثالثة في الوتر. كما يفعل مسلمو الهند، وباكستان وبنجلاديش. رواه ابن أبي شيبة في صلاة التطوع (٣٠٣٢٦).

(٣) متَّفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (١١٢٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٩)، عن ابن عباس.

(٤) في المطبوع: يعقد.

QaradawiBooks.com

وأما توطيد هذه العلاقة وتنميتها فإنَّما تنحصر في طريقين: طريق الفهم والتفكر، وطريق العمل وتقويتها بطريق الفهم والتفكر هي أن تدرسوا القرآن الكريم والأحاديث النبويَّة الصحيحة عن كل فهم وتدبر مرة بعد أخرى، لتستعينوا بهما في معرفة ما يوجد بينكم وبين الله تعالى من وجوه النسبة من حيث الفطرة، ومن حيث الواقع، حتَّى إذا عرفتم هذه الوجوه واستعرضتم حالكم، فعليكم أنْ تنظروا أي وجه من هذه الوجوه قد حافظتم عليه، وإلى أي حدٍّ تحققون مقتضياته، وأي نقص تشعرون به في أنفسكم في شأنه، فعلى قدر ما يتقوى هذا الشعور فيكم، تزداد علاقتكم بالله تعالى استيثاقًا.

فمن وجوه النسبة بينكم وبين الله ـ على سبيل المثال ـ أنَّكم عباده وهو معبودكم، ومنها أنَّكم خلفاؤه في الأرض، قد خوَّل إليكم ما لا يعدُّ ولا يحصى من نعمه وآلائه. ومنها أنَّكم لما آمنتم به فقد اشترى منكم أنفسكم وأموالكم بأنَّ لكم الجنَّة، ومنها أنَّكم مسؤولون أمامه وهو لا يحاسبكم حسب ظاهركم، بل قد سجل عنده جملة حركاتكم وسكناتكم ونياتكم وإرادتكم.

فهذه وكثير من أمثالها هي وجوه النسبة بينكم وبين الله تعالى، فعلى فهمها والشعور بها، والوفاء بمقتضياتها، تتوقف قوة علاقتكم بالله وتقربكم إليه. وإنَّكم على قدر ما تغفلون عنها، ولا تتفكرون في الوفاء بمقتضياتها تبتعدون عن الله، وتنفصم صلتكم عنه. وعلى قدر ما تكونون منتبهين إليها، ساهرين على الاحتفاظ بها، والاهتمام بشأنها، تكون علاقتكم به قوية عميقة.

إلَّا أنَّ هذا الطريق الفكري لا يؤتي ثماره، بل لا يمكن التمسك به إلى مدة طويلة، ما لم يكن مستندًا إلى الطريق العملي، وهو الطاعة

QaradawiBooks.com

المخلصة للأحكام الإلٰهيَّة، وبذل النفوس والنفائس في كل طريق يفضي إلى مرضاة الله ﷻ.

ومعنى الطاعة للأحكام الإلٰهيَّة: أنْ تعملوا بكل ما أمر به الله تعالى، عن طواعية نفوسكم، وعلى منشط منكم ومكره، سرًّا وعلانية، بدون أنْ تراعوا فيه غرضًا دنيويًّا، وإنَّما تراعون فيه وجه الله ﷻ، وأنْ تنتهوا عن كل ما نهى عنه الله ﷻ سرًّا وعلانية، على كراهية ونفرة قلبية منكم، وألَّا يكون الباعث لكم على هذا الانتهاء خوفكم من مضرة دنيوية، ولكن خوفكم من الله تعالى وحده، وهذا ما سيرتفع بكم إلى درجة تقوى الله.

وأما ما سيرتفع بكم إلى درجة الإحسان بعد درجة التقوى هذه، فهو أنْ تعملوا لترقية كل فضيلة يحبُّها الله ورسوله، وإحباط كل رذيلة يبغضها الله ورسوله، وأنْ لا تضنوا في هذه السبيل بكل ما تملكون من نفوسكم ونفائسكم، وأوقاتكم وجهودكم، وقواكم الفِكْرِيَّة والقلبية، مع ملاحظة أنْ لا ينشأ في قلوبكم شيء من الزهو والاغترار بما تأتون به في هذه السبيل، من أعمال التضحية والإيثار والفداء، ولا أن يمر بخلدكم أنَّكم قد صنعتم بها إلى أحد يدًا، بل يجب أنْ تكون فكرتكم على كلِّ حال أنَّكم مقصِّرون في أداء ما عليكم من حق خالقكم ﷻ».

وسائل تنمية العلاقة بالله:

وإنَّ اختيار هذا الطريق وسلوكه ليس بشيء هين، بل هو شِعب من أصعب الشعاب يحتاج اجتيازه إلى قوة غير عادية.

وفكر المودودي في الوسائل الَّتي يمكن أنْ يستعان بها في تنشئة هذه القوة في الإنسان: من الصلاة بفرائضها ونوافلها، مع إحياء النوافل ما أمكن ذلك.

QaradawiBooks.com

ومن ذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا على كل حال، مع الاجتهاد في استحضار القلب ليوافق اللسان.

ومن إنفاق المال في سبيل الله، ومنه الزكاة، وليست هي كل المطلوب. وكذلك صوم رمضان، والتطوع بعد رمضان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

مقياس العلاقة بالله:

ويبيِّن المودودي لأنصاره ورجال دعوته «المعيار» الَّذي يعرفون به مدى علاقتهم بالله صعودًا وهبوطًا، قوة وضعفًا، فيقول: «أما كيف لكم أنْ تعرفوا مدى علاقتكم بالله، وهل أنَّها في ازدياد وتقدم، أم في نقص وتقلص مع مرور الأيام، فلا حاجة لكم لذلك إلى البشائر في النوم، ومظاهر الكشف والكرامات، ومشاهد الأنوار في الحجرات المظلمة لكل ذلك، فالله تعالى قد وضع في قلب كل إنسان آلة لمعرفة مدى علاقته بالله، فله أنْ يقيسها بهذه الآلة في حالة اليقظة، وفي ضوء النهار، في أية ساعة من ساعاته إذا شاء.

استعرضوا حياتكم وتصرفاتكم ومساعيكم، وكل ما تجيش به قلوبكم من العواطف والمشاعر والنزوات، ثُمَّ حاسبوا أنفسكم لتروا إلى أي حدٍّ أنتم صادقون مخلصون في بيعكم الَّذي عقدتموه بينكم وبين ربكم، بإيمانكم به، وتصديقكم لكتابه ورسوله، وهل أنتم تتصرفون في ما عندكم من ودائعه تصرُّف الأمين، أو تختانون فيها، وأي جزء من أوقاتكم وأموالكم ومواهبكم الفِكْرِيَّة تصرفونه للسعي في سبيله، وأي جزء منها تصرفونه في أعمالكم وشؤونكم الأخرى، وكيف يكون من قلقكم واضطرابكم وحزنكم وألمكم لو حلَّ المكروه في مصالحكم

QaradawiBooks.com

الشخصيَّة، وماذا يبلغ بكم هذا القلق والاضطراب والحزن والألم عندما ترون النَّاس في الدُّنْيا يخرجون على الله وشريعته خروجًا سافرًا، وينتهكون حرماته علنًا؟ فهذه وأمثالها من الأسئلة الَّتي يمكنكم أنْ تلقوها على أنفسكم، ثُمَّ تتلقوا منها جوابًا في أي ساعة من ساعات ليلكم أو نهاركم، فتعرفوا مدى علاقتكم بالله أو قطيعتكم عنه.

وأما البشائر والانكشافات والكرامات والأنوار والتجليات فلا يهمَّنَّكم اكتسابها، فإنَّه لا كشف أعظم من إدراك حقيقة التوحيد في متاعب هذه الدُّنْيا المادِّيَّة الخلابة، ولا كرامة أكبر من الاستقامة على جادة الحق، إزاء ترغيبات الشيطان وذريته وترهيباته ومواعيدهم ووساوسهم، ولا مشاهدة للأنوار أحق للقدر والإجلال من الاهتداء لنور الحق، واتباعه في دياجير الكفر والفسق والعصيان والضلال المطبق على رؤوسنا اليوم، وإنَّ أكبر بشرى يمكن أن يرتاح إليها المؤمن وهي أنْ يقول: ربي الله، ثُمَّ يستقيم على صراطه المستقيم، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]».

إيثار الآخرة على الدنيا:

ثم يختم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الوصايا بوصيته الضرورية الأخيرة، فيقول: «وأريد أنْ أوصيكم بعد ذلك بأنْ تؤثروا الآخرة على الدُّنْيا في كل عمل من أعمالكم، وتجعلوا سعادتكم هي المقصود الوحيد من ورائه.

إنَّ الَّذي نجد بيانه في غير موضع واحد من القرآن الحكيم: أنَّ الدار الآخرة هي «دار القرار» وهي «دار الحيوان»، أي هي المقام الأبدي السرمدي لحياة الإنسان، وإنَّنا ما بعثنا في هذه الدُّنْيا الفانية إلَّا للاختبار:

QaradawiBooks.com

منْ منَّا يثبت نفســه أهلًا لوراثة جنة الله ونعيمها، مستخدمًا ما أوتي في هذه الدُّنْيا من المتاع القليل، والتصرفات المحدودة والفرص الضيقة؟

ليس اختبارنا في هذه الدُّنْيا في إبراز مهارتنا في تســيير الصناعات والتجارات والزراعات والحكومات، ولا في إنشــاء الأبنية والشــوارع، ولا في إحداث مدنية راقية رائعة، وإنَّما هــو في أداء حق خلافة الله في ودائعه: هل نقضي هذه الحياة الدُّنْيا متمردين عليه أم خاضعين لقانونه؟

وهل نعمل فيها تحقيقًا لمرضاته أم تحقيقًا لمرضاة أنفســنا ومرضاة أرباب من دون الله؟

وهل نبذل فيها جهودنا لتزيين الأرض حسب المعيار الإلٰهي أم نكثر فيها الفساد، ونهلك فيها الحرث والنسل؟

وهل نقاوم فيها القوى الشيطانية ونعمل على كسر شوكتها أم نستسلم لجبروتها ونخضع لقوانينها؟

إنَّه ما كان اختبــار أبينا آدم في الجنَّة إلَّا في هــذا الأمر، وهو الَّذي سيكون فيه اختبارنا لوراثة الجنَّة الأبدية في الآخرة. إذن فليس المقياس الحقيقي لفوزنا أو خســراننا أنَّه مــن أدَّى اختباره متربعًا فوق كرســي للحكم، ومن أدَّاه معلَّقًا على خشبة الشنق، ومن منَّا كان اختباره بإعطائه ســلطات عالية، أو بإعطائه كوخًــا متواضعًا. إنَّ هذه الظــروف المؤقتة الطارئة خلال فترة الاختبار إن كانت ملائمة للإنسان، فهي لا تدلُّ على فوزه وســعادته، وإن كانت على عكس ذلك، فهي لا تدلُّ على خسرانه وشقائه. وإنَّما الَّذي ينحصر فيه نجاحه وسعادته الأبدية في حقيقة الأمر هو أن يثبت نفســه في حياته الدُّنْيا عبدًا وفيًّا لله، متبعًــا لمرضاته أينما جلس من الأماكن، ومهما أعطي من الوسائل لأداء الاختبار.

QaradawiBooks.com

إخواني وسادتي! إنَّ هذه الحقيقة الَّتي وضعتها بين أيديكم، لا يكفي أن تفهموها مرة واحدة، بل إنَّه من الواجب عليكم أن تبذلوا كل جهودكم لتجعلوا أنفسكم تتذكرونها، وتستحضرون مقتضياتها في أذهانكم دائمًا، وإلَّا فإنَّكم لا تأمنون أبدًا أن تغفلوا عنها، ولا تعملوا في الدُّنْيا إلَّا غافلين عن الآخرة، وجاعلين الدُّنْيا أكبر همِّكم.

والسبب في هذا: أنَّ الآخرة حقيقة وراء الحواس والمشاعر لا تشعرون بها في هذه الدُّنْيا، وإنَّما تشعرون بها بعد مماتكم، فلا يمكن أنْ تدركوها وتدركوا نتائجها المرضية وغير المرضية إلَّا بالفكر والكدِّ الذهني. وأما الدُّنْيا ـ على العكس من هذا ـ فشيء تشعرون به، وتذوقون حلاوته ومرارته، وتمثل أمامكم نتائجه المرضية وغير المرضية في كل حين من أحيانكم، ولذا فهي تحاول دائمًا أنْ تغرَّكم بأنَّ نتائجها هي النتائج الحقيقيَّة.

إنَّ آخرتكم إذا فسدت، فإنَّما تشعرون بشيء من مرارتها في ضمائركم، بشرط أنْ تكون ضمائركم حية، وعلى العكس من هذا فإنَّ دنياكم إذا فسدت، تشعر كل جارحة من جوارحكم بوخزتها، كما أنَّه يستشعر بها ويشعركم بها كلٌّ من أولادكم وأقاربكم وأصدقائكم وعامة أفراد المجتمع، منفردين ومجتمعين.

وكذلك إنَّ الآخرة إذا صلحت، فإنَّما تشعرون بحلاوتها في ناحية من نواحي قلوبكم، بشرط ألَّا تكون هذه الناحية مصابة بالغفلة والشلل. وأما إذا صلحت الدُّنْيا، فهي تنعش جميع وجودكم، وتستلذ بها كل حاسة من حواسكم، وتشارككم في الشعور بها جملة أفراد مجتمعكم.

وهذا هو السبب في أنَّ الإيمان بالآخرة، وإن لم يكن صعبًا من حيث هو عقيدة، إلَّا أنَّه من الصعب حقًّا أن تقضوا حياتكم كلَّها وَفْقًا

QaradawiBooks.com

لمقتضياتها، بجعلها وجهةً وحيـدةً لنظركم، وأساسًـا وحيدًا لنظامكم للأخلاق والأعمال، وأنَّ الاستخفاف بالدنيا باللسان مهما كان هيِّنًا، فإنَّه ليس من السهل أبدًا أن تُجَرِّدوا قلوبكم عن حبِّها، وفكرتكم عن طلبها. فهذه الكيفيَّة ـ التجرُّد عن حب الدُّنْيا ووطأتها ـ يتطلَّب التكيُّف بها إلى جهدٍ كبير غير عـادي، ولا يمكنكم أنْ تحافظوا عليها في أنفسـكم إلَّا بسعيٍ متواصل»[1] اهـ.

أبو الأعلى والعنف:

ويرى المودودي أنَّ أقوى أنواع التغيير هو التغيير الفكري والنفسي، فالإنسـان إنَّما يقاد من فكره ومن إرادته. وإذا كان الماركسيون يقولون: غيِّر علاقات الإنتاج ووسـائله يتغيَّر التاريخ. فالمـودودي يرى ما يراه القرآن، حيث يقول: غيِّر الأنفس ـ أو غيِّـر ما بالأنفس ـ يتغيَّر التاريخ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولهذا لا يرى المودودي ضرورةً لاسـتخدام السـلاح أو العنف في التغيير المنشود، ولا يقبل التغيير عن طريق انقلاب عسكري.

ولقد مرَّت بالأسـتاذ المودودي وجماعته ظروف عصيبـة، وتحدِّيات عنيفة، واعتداءات شرسـة، لم تتورَّع عن إراقة الدم عندما وجدت الفرصة، وكان يمكن أنْ تنهزم فكرة «الصراع السـلمي» أمام هذه الهجمات العدوانيَّة من خصوم الجماعة من حكام وأحزاب، لا تخشى خالقًا، ولا ترحم مخلوقًا.

ولكنَّ المودودي لم تلِنْ قناته، ولـم يحِدْ عن مبدئه، وظلَّ إلى آخر رَمَقٍ يرفض أنْ يقاتل إلَّا بسلاح الفكر، وسيف الحُجَّة والبرهان.

(١) تذكرة دعاة الإسلام صـ ٦٥ ـ ٧٧، الفصل الخامس: وصايا وتوجيهات.

QaradawiBooks.com

تطاول عليه بعض خصومه الحزبيِّين بُرْهةً من الزمن، وتناولوا شخص الأستاذ بكلماتٍ وتصرُّفات ينفد معها صبر الحليم، وأراد بعض إخوانه يومًا أنْ يردُّوا الأذى بأذًى، ويدفعوا السيِّئة بمثلها، فيأبى الرجلُ كلَّ الإباء.

فلما قالوا له: يا أستاذُ إنَّهم يؤذوننا فيك إيذاءً عظيمًا! أجابهم بقوله: إذا آذوكم إيذاءً عظيمًا، فعليكم أنْ تصبروا صبرًا عظيمًا، بل صبرًا أعظم!

وفي أوائل الستينيَّات كان الحكم العسكري الحاكم يضطهد الجماعة الإسلاميَّة، ويُضَيِّق عليها بكلِّ الوسائل، ولكنَّه لم يجد مُبَرِّرًا يمنع به نشاطَ الجماعة، ويحُول دون اجتماعاتها، فلما كان يومُ اجتماع أركانها السنوي، حرَّضت السلطة الحاكمة من يطلق النار على المودودي عند خطابه السنوي المعتاد، ولكنَّ الرصاصة أخطأته فقتلت عُضْوًا آخر.

وهنا قال بعض المُقَرَّبين للأستاذ: ينبغي أنْ تجلس، ولا تقفْ لتتكلم، تفاديًا لرصاص الآثمين. فكان جواب المودودي بكلِّ بساطة ووضوح: إذا قعدتُ أنا فمن يقوم؟!

ورغم هذا كلِّه لم يستشطْ غضبًا، ولم يدفعْه هذا الموقف وأمثاله بعده إلى اتِّخاذ العنف سبيلًا.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

٣

المنتقدون لفكر المودودي وأصنافهم

لا يُتَصَوَّر في شأن رجلٍ مُفَكِّر مُجَدِّد مُؤَسِّس حركة إسلاميَّة كالمودودي، له منهجه الأصيل، وطابعه الخاص، واستقلاله الفكري، ودعوته الانقلابيَّة؛ ألَّا يكون له نُقَّاد ومعارضون.

وما من رجلٍ عظيم في الماضي والحاضر إلَّا وقد انقسم النَّاس في شأنه ما بين مادحٍ وقادح، بل ما بين مُغَالٍ في المحبَّة والمدح، ومُسْرِفٍ في البُغْض والقَدْح، شأن البشر في كثير من القضايا والمواقف، إلَّا من رحم ربُّك، وقليلٌ ما هم.

ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقد قال: هلك فيَّ اثنان: محبٌّ غالٍ، ومُبْغِضٌ قالٍ[(١)].

قال العلَّامة ابن عبد البرِّ: «كان يقال: يستدلُّ على نباهة الرجل من الماضين بتباين النَّاس فيه. قالوا: ألا ترى إلى عليِّ بن أبي طالب أنَّه هلك فيه فَتَيَان: محبٌّ أفرط، ومُبْغِضٌ فَرَّط... وهذه صفة أهل النباهة، ومن بلغ في الدِّين والفضل الغاية»[(٢)].

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٧٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١٠٨٢/٢)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

وصدق الشاعر إذ قال:

ومَنْ فِي النَّاسِ يُرْضِي كُلَّ نَفْسٍ وبين هَوَى النُّفُوسِ مَدًى بَعِيدُ[1]؟!

العلمانيُّون والماركسيُّون عبيد الفكر الغربي:

والمنتقدون للمودودي أصناف: فمنهم من ينتقده؛ لأنَّه يكره دعوته، فهو في الحقيقة لا يكره المودودي، وإنَّما يكره الإسلام ذاته، وهذا مثل كثير من عبيد الفكر الغربي، من الماركسيِّين والعِلمانيِّين وخصوم الإسلام، وكلِّ من لا يحبُّ أنْ تقوم للإسلام دولة تحكم بشريعة الله، وتبني مجتمع الإيمان، وتُمَكِّن لدين الله في أرض الله، وتُرَبِّي النَّاس على منهج الإسلام، دولة لا تريد عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا، من ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

وقد كانت معركة المودودي الأولى مع هؤلاء، الَّذين يرفضون الإسلام منهاجًا للحياة، ممَّن جعلوا ولاءهم لغير الله ورسوله والمؤمنين.

وخصومة هؤلاء للمودودي خصومة جذريَّة جوهريَّة، ليست خصومة سطحيَّة ولا هامشيَّة؛ لأنَّها خصومة عقائديَّة (أيديولوجيَّة)، خصومة في الأسس والأصول لا في المباني والفروع، كخصومته مع أدعياء النبوَّة الجديدة من «القاديانيِّين»، الَّذين رفضوا ما نطق به القرآن والسُّنَّة، وأجمعت عليه الأُمَّة، وأصبح معلومًا من الدِّين بالضرورة، وهو أنَّ الله ختم بمحمَّد الرسل والنبيِّين جميعًا، فلا نبيَّ بعد محمَّد، ولا كتابَ بعد القرآن، ولا شريعة بعد الإسلام. وقد أفضت خصومته مع هؤلاء إلى أن حُكِمَ عليه بالإعدام.

(١) من شعر ناصيف اليازجي.

QaradawiBooks.com

وكذلك خصومته مع العِلمانيِّيــن الأقحاح من عبيد الغرب، يمينيِّين كانوا أم يساريِّين.

ومعارضة أمثال هؤلاء للمودودي تزيده فضــلًا على فضل، وترفعه درجة فوق درجاته، وتحسب له في سجلِّ مَفَاخره، وميزان حسناته، فإنَّهم بباطلهم لا يعارضــون إلَّا حقًّا، وقديمًا قيل: حَسْــبُكَ نصرًا أنَّ خَصْمَك يحارب الله ورسوله!

ومن قبل قال الشاعر:

لَقَــدْ زَادَنِي حُبًّــا لِنَفْسِــي أَنَّنِي بَغِيضٌ إلــى كُلِّ امرئٍ غَيْرِ طَائِلِ
وأَنِّــي شَــقِيٌّ باللِّئــام، ولا ترى شــقيًّا بهم إلَّا كريمَ الشَّمَائِلِ[1]**!**

المتاجرون بالتصوُّف:

ومن هؤلاء الخصوم، الَّذين يعيشون ـ أو يتعيَّشون ـ باسم الإسلام، وهو منهم بريء، من المنحرفين الَّذين يتاجرون بالتصوُّف، ويضحكون على عوامِّ المسلمين، ممَّن قال فيهم الشاعر:

وَقَالُــوا: سَــكِرْنَا بِحُــبِّ الْإِلَــهِ وَمَا أَسْــكَرَ الْقَــوْمَ إِلَّا القَصَعْ[2]**!**

أدخلوا على الإســلام ما ليس منه، فأفسدوا حقائقه، ولوَّثوا تعاليمه؛ أفسدوا توحيده بالشركيَّات، وعباداته بالمبتدَعات، وأخلاقه بالمداهنات.

---

(١) من شــعر الطرماح بن حكيم، انظر: الوســاطة بين المتنبي وخصومه صـ ٢٤٧، نشر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.

(٢) من شــعر إبراهيم بن نصر الموصلي. انظر: وفيات الأعيان (٣٨/١)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، والبداية والنهاية (٣٨/١٧)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

وبعض هؤلاء الجهلة يفتقرون إلى أن يعلموا الإسلام من جديد، وبعضهم مرتزقة ليس لهم من التصوُّف إلَّا اسمه أو رسمه!

لقد كرهوا من المودودي أنْ يفضح زيفهم، ويكشف دجلهم، ويأخذ أتباعهم منهم لينضمُّوا إلى الركب المستنير بعقل الإسلام، بدل القطيع المَسُوق بعصا الخرافة والتهويل.

اختلاف التكوين الثقافي:

ومنهم من ينتقده لأنَّه لم يفهمه، ولم يدركْ أغواره، لاختلاف التكوين الثقافي، واختلاف الاهتمامات، وتوافر سوء الظنِّ، وعدم وجود الثقة من بعض العلماء المُدَرِّسين الكبار، الَّذين يعيشون في دائرة غير دائرته، وأفق غير أفقه، ولهموم غير همومه، ولا يواجهون من التيارات ما يواجهه، فهم يبحثون عن زلَّاته يُضَخِّمونها، ويؤاخذونه باللوازم ويحاسبونه عليها. وقد رأيتُ الكثير من مآخذهم قابلًا للتأويل، والحمل على مَحْمَلٍ صحيح، لو توافر حُسنُ الظنِّ، وهو مطلوب مع المسلم العادي، فكيف مع رجلٍ نصب نفسه للدفاع عن الإسلام، والدعوة إليه نظامًا كاملًا للحياة؟

وبعض هؤلاء المنتقدين للأستاذ، ممَّن ضاقت آفاقهم، من الجامدين أو المقلِّدين، أو المتعصبين لوجهة نظر واحدة، وإن كان كثير منهم مخلصين.

وهذا أمر يتكرَّر في كلِّ الأعصار، حتَّى مع الأئمَّة الكبار. ومن هذا ما ذكروه عن إمام الجرح والتعديل يحيى بن مَعِين: أنَّه تكلَّم في الإمام الجليل محمَّد بن إدريس الشافعي، وزعم أنَّه ليس بثقة!

QaradawiBooks.com

ولما نقل هذا القول للإمـــام أحمد بن حنبل قـــال: ومن أين يعرف يحيى بنُ مَعِين الشـــافعيَّ؟! هو لا يعرف الشـــافعي، ولا يعرف ما يقول الشافعي! ومن جهل شيئًا عاداه[١]!

هذا مع أنَّ يحيى إمامٌ في فنِّه، ومن أقرب النَّاس إلى ابن حنبل، قال الإمام أبو عمر ابن عبد البرِّ: صـــدق أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إنَّ ابن مَعِينٍ كان لا يعرف ما يقول الشـــافعي، وقد حُكِيَ عن ابن معينٍ أنَّه سئل في مسألةٍ من التيمُّم، فلم يعرفها[٢]!

وهذا يُبَيِّن لنا: أنَّ اختلاف التكوين واختلاف الهموم مُؤثِّر في الحُكْم على الأشخاص، فابن مَعِينٍ ـ ولا شكَّ ـ من أُفُق غير أفق الشافعي، ومن تيارٍ غير تياره.

ومن هنا لا نعجـــب ممَّا جاء من خلافٍ وطعنٍ متبادل بين مدرســـة الحديث والأثر ومدرسة الرأي والنظر، حفلت به كتب الجرح والتعديل، وكتب التراجم والطبقات، وخصوصًا من مدرسة الأثر وأهل الحديث في حق مدرسة الرأي وإمامها الأشهر أبي حنيفة النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) جاء في سؤالات ابن الجنيد: قلتُ ليحيى بن معين: ترى أن ينظر الرجل في شيء من الرأي؟ فقال: أي رأي؟ قلتُ: رأي الشـــافعي وأبي حنيفة؟ فقال: ما أرى لمســـلم أن ينظر في رأي الشافعي، ينظر في رأي أبي حنيفة أحب إلى من أن ينظر في رأي الشافعي. انظر: سؤالات ابن الجنيد لأبي زكريا يحيى بن معين صـ ٢٩٥، تحقيق أحمد نور سيف، نشر مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

وقد شـــكك بعض العلماء في نســـبة هذا القول ليحيى بن معين. انظـــر: تهذيب التهذيب (٣١/٩)، نشر مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ، وجامع بيان العلم وفضله (١١١٤/٢).

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١١١٤/٢).

QaradawiBooks.com

ومن قرأ ما نقله أهل الحديث من انتقادات ـ بل طعون واتِّهامات ـ للإمام أبي حنيفة: لم يُصَدِّق أنْ يكون في المسلمين من يصدُر عنه مثل هذه الأقوال، والحمد لله أنَّها غير معروفة لدى عوامِّ المسلمين، فقد تجاهلها العقل الإسلامي العامُّ ودفنها، ولم يُلْقِ لها بالًا، وظلَّ أبو حنيفة في القمَّة العالية، مكرمًا معظمًا يتبعه مئات الملايين من المسلمين، ويترضَّوْن عنه في كلِّ مكان.

قال الحافظ المجتهد أبو عمر ابن عبد البرِّ في كتابه «جامع بيان العلم وفضله»: «أفرط أصحاب الحديث في ذمِّ أبي حنيفة، وتجاوزوا الحدَّ في ذلك، والسبب الموجب لذلك عندهم: إدخاله الرأي والقياس على الآثار واعتبارهما. وأكثر أهل العلم يقولون: إذا صحَّ الأثر بطل القياس والنظر. وكان ردُّه لما ردَّ من أخبار الآحاد بتأويلٍ مُحْتَمل، وكثيرٌ منه قد تقدَّمه إليه غيرُه، وتابعه عليه مثله ممَّن قال بالرأي. وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتِّباعًا لأهل بلده، كإبراهيم النَّخَعي، وأصحاب ابن مسعود»[(١)].

تحاسد المعاصرين:

ومن نُقَّاد المودودي: من ينتقده حسدًا وبغيًا، وهو شأن البشر بعضهم مع بعض، فليسوا ملائكة مُطَهَّرين، وهذا يحدث كثيرًا من انفعالٍ طارئ، وغضبٍ عارض، فيفقد الإنسان اتزانه في الحُكم، ولهذا جاء التحذير من الغضب، كما في الصحيحين: «**لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان**»[(٢)].

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٠٨٠).

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥٨)، ومسلم في الأقضية (١٧١٧)، عن أبي بكرة.

QaradawiBooks.com

ويحـدث أحيانًا أن يكون الانتقاد من حسـدٍ كامن، ولا سـيَّما من المتعاصريـن بعضهم لبعض، وقد نقل من هذا شـيء كثيـر عن علماء السلف المتعاصرين ـ على فضلهم ـ فكيف بأهل عصرنا؟!

ذكر الحافظ ابـن عبد البرِّ في كتـاب «العلم» بابًا فـي «حكم قول العلماء بعضهم في بعض» بدأه بالحديث النبوي: «**دبَّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم: الحسـدُ والبغضـاءُ، والبغضاءُ هي الحالقـة، لا أقول: تحلقُ الشعر، ولكن تحلقُ الدِّين**»[(١)].

وثنَّى فيه بما جاء عن ابن عبَّاس: استمعوا علم العلماء، ولا تُصَدِّقوا بعضَهم على بعضٍ، فوالَّذي نَفْسـي بيده، لهم أشدُّ تغايرًا من التُّيوس في زُرُوبِهَا[(٢)]!

وذكر في ذلك أمثلة من قول أهـل العلم بعضهم في بعض، يعجب الواحد منَّا كيف صدر من أمثالهم! ولكـنَّ الكمال لله وحده، والعصمة لرسوله ﷺ، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقد رأينا أنموذجًا من ذلك: ما سـاقه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» من أقوال بعض كبار رجال الحديث عن الإمام أبي حنيفة، يقشعرُّ لها البدن، وهو ما دعا الشيخ الكوثري أنْ يكتب كتاب «تأنيب الخطيب على ما ساقه في حقِّ أبي حنيفة من الأكاذيب».

---

(١) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرِّجوه: إسـناده ضعيف لانقطاعه. والترمـذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البـر في جامع بيان العلـم وفضله (٢١٢٢)، وقـال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦١/٣): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد قرأت في كتاب «السُّـنَّة» المنسوب لعبد الله بن أحمد بن حنبل أقوالًا عن أبي حنيفة، قَفَّ لها شـعرُ رأسـي، ولم أكد أُصَدِّق أن يخرج مثلها من فم عالم! وفيها اتِّهام للأُمَّة المسـلمة أنَّهـا راج عليها الباطل، واتَّبعت من لا علم عنده ولا دِين!

وما من إمـامٍ من الأئمَّة إلَّا وُجِـدَ من تكلَّم فيه بطعـنٍ أو تجريحٍ، لسببٍ أو لآخر، قال ابن عبد البرِّ: «وما مثل من تكلَّم في مالكٍ والشافعي ونظرائهما من الأئمَّة إلَّا كما قال الأعشى:

كَنَاطِـحٍ صَخْـرَةً يَوْمًـا ليُوهِنَها فلم يَضِرْهَا، وأَوْهَى قَرْنَه الوَعِلُ[(١)]!

أو كما قال الحُسَيْن بن حُمَيْد:

يَا نَاطِـحَ الْجَبَلِ الْعَالِـي لِيُكْلِمَهُ أَشْفِقْ عَلَى الرَّأْسِ لَا تُشْفِقْ عَلَى الْجَبَلِ!

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول:

ومَنْ ذَا الَّذي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سَالِمًا وَلِلنَّاسِ قَـالٌ بِالظُّنُونِ وقِيلُ[(٢)]؟!

قيل لأبي عاصمٍ النبيل: فلان يتكلَّم في أبي حنيفة!

فقال: هو كما قال نُصَيْب:

سَلِمْتِ، وهل حيٌّ على النَّاس يَسْلَمُ[(٣)]؟!

---

(١) في معلقته، انظر ديوانه صـ ٦١، شـرح وتعليق الدكتور محمد حسـين، نشر مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة.

(٢) ديوانه صـ ٣٥٦، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

(٣) عزاه لنصيب أو كُثَيِّر عزَّة: الخطابي في العزلة صـ ٥٩، نشر المطبعة السلفية ـ القاهرة، ط ٢، ١٣٩٩هـ. وروى كلام أبي عاصم أبو نعيم في الحلية (١٤٧/٩)، نشر مكتبة السعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

QaradawiBooks.com

وقال أبو الأسود الدُّؤَلي:

حَسَــدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالنَّــاسُ أَعْــدَاءٌ لَــهُ وَخُصُومُ[(١)]!

ورُوِيَ أنَّ موسى عليه السلام قال: يا ربُّ، اقطع عَنِّي لسانَ بني إسرائيل!

فأوحى الله إليه: يا موســى، لــم أقْطَعْها عن نفســي، فكيف أقطعها عنك؟!»[(٢)].

هذا بعض ما ذكره الحافظ ابنُ عبد البرِّ من قول العلماء بعضهم في بعض، في أزمنةٍ هي خيرٌ من زمننــا، ومن أناسٍ هم خير من معاصرينا، فكيف بزماننا وأهله، وقد قلَّ فيه الإنصاف، وكثر الميلُ والاعتساف؟!

الخلاف في الجزئيَّات:

ومن هؤلاء من ينتقد المودودي لخلافهم لــه في بعض ما ذهب إليه من آراء واجتهادات، ولكنَّهم يجعلون خلافه لهم كأنَّما هو خلافٌ للإسلام نفسه، أعني أنَّهم اعتبروا أنفســهم وحدهم ممثِّلي الإسلام، والمُتَحَدِّثين الرَّســميِّين باســمه، فليس لأحدٍ قولٌ مع قولهم، ولا يُقْبَــلُ فكرٌ يخالف فكرهم. وغالبًا ما نجد أكثر هؤلاء لا يُفَرِّقون بيــن الجزئيَّات والكُلِّيَّات، فالمخالفة في جزئيَّة أو اثنتين أو ثلاث توقد عندهم نارًا لا يخمد أُوارُها.

فإذا أوَّل المــودودي حديثًا، أو خالف أمــرًا متوارثًا، أو رفض الرأي المشــهور في قضيَّة: شــهروا فــي وجهه ســيفَ الاتِّهام، وأثــاروا غبار الشُّبُهات، وأطالوا الألســنة فيه بالذمِّ والغِيبة، كما فعل ذلك قومٌ من قبل

(١) ديوانه صنعة أبي سعيد السكري صـ ٤٠٣، تحقيق محمد حسن آل ياسين، نشر دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٨م.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١١٥/٢، ١١١٦).

QaradawiBooks.com

في مثل الإمامَيْـــن: أبي حنيفة ومالك رضي الله عنهما، حيث اتُّهـــم كلٌّ منهما بترك الحديث والأثر للرأي والنظر. حتَّى قال من قال: «لو خرج أبو حنيفة على هذه الأُمَّة بالسَّيْف كان أيسر عليهم ممَّا أظهر فيهم من القياس والرأي»[١].

واتَّهـــم بعضهم مالك بن أنس لمـــا ذهب إليه من اعتبـــار المصالح المرسلة بأنَّه خلع رِبْقَة الإسلام من عنقه[٢]. أي تحلَّل من التقيُّد بنصوص الشـــرع الحنيف! فيا لها من كلمة! ويا له من اتِّهام! ومنشأ هذا تعصُّب المرء لما عنده، وسوء ظنِّه بما عند غيره.

وهبْ أنَّ المودودي أخطأ في بعض المسائل الجزئيَّة، أو خانه التعبير الدقيق فيها، على ما يقوله هؤلاء، فهل يعني هذا أنْ تسقط إمامتُه، وتُجرح عدالته، ويُحْمَل عليه في دِينِه وفِكْره؟ وأيُّ عالمٍ سَلِمَ من هفوة، وأي جوادٍ خلا من كَبْوة؟ وإنَّما المعصوم من عصمه الله، وذلك هو النبيُّ وحده.

وأوضح من ذلك ما اتُّهم به شيخ الإسلام ابن تيمية من خروج على الإجماع، ومخالفة للصحابة، وأئمَّة المذاهب، وكلُّها دعاوى غير صحيحة ولا مقبولة، ولكنَّه حوكم من أجلها، وامتُحن بسببها، ودخل السجن أكثر من مرَّة، ومات فيه رضي الله عنه.

خلاف بعض الدُّعاة الكبار في بعض قضايا الفِكْر:

وهناك من ينتقدون الأســـتاذ المودودي لخلافهم لـــه في الرأي في بعض القضايا والموضوعـــات، لاختلاف زاوية النظر عنده وعندهم، مع تسليمهم له بالمنزلة والفضل وصدق النيَّة، وطول الباع في نقد الحضارة

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٠٣)، من قول الإمام مالك.

(٢) الاعتصام (١٣٣/٣)، تصحيح محمد رشيد رضا، نشر مطابع شركة الإعلانات الشرقية، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

QaradawiBooks.com

الغربيَّة والفلسـفات المادِّيَّة، وفي الدعوة إلى الإسلام، وفضح خصومه، وتزييف أفكارهم وتوجُّهاتهم، وإنَّما خالفوه في بعض مسـائل العلم، أو بعض قضايا الفكر، أو في مناهج العمل الإسلاميِّ العامِّ.

وهذا لا حرج فيه، وسيظل النَّاس يختلفون في مثله، ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها، ولكلِّ مجتهدٍ نصيب، والمصيب في اجتهاده مأجور، والمخطئ معذور بل مأجور، وإن كان دون أجر المصيب.

نقد الشيخ أبي الحسن الندوي:

وأحسب من هؤلاء الداعية الإسلامي الكبير الأستاذ السيِّد أبا الحسن علي الحسـني الندوي، الَّذي انتقد بعض ما كتبه الأسـتاذ المودودي، ولا سيَّما في كتابه «المصطلحات الأربعة في القرآن».

ولسـت هنا في مقام الفصل بيـن الرجلين الكبيريـن، ولكنِّي فقط أُسَجِّل هنا ثلاث ملاحظات:

الأولى: ذكرتهـا للعلَّامة الندوي حين سَـعِدْتُ بلقائـه في الدوحة عاصمة دولة قطر، إبَّان انعقاد المؤتمر الثالث للسِّـيرة والسُّـنَّة النبويَّة، وهي أنَّ الأستاذ الندوي سمَّى كتابه حين نشره بالعربيَّة «التفسير السياسي للإسلام»، فقلت له: إنَّ هذه التسمية فيها شـدَّة وعنف، وقد تُوهِم غيرَ ما قصدتَ إليه، وكان من إنصاف الشيخ أنَّه أقرَّ بهذا، وقال: ليتني سمعتُ هذا قبل نشـره، وإنَّه يخشى أنْ يَسـتغلَّ هذا في بلاد العرب من ينادون بفصل الدِّين عن السياسة! أو على حدِّ تعبيرهم بـ«تسييس الدين». وأذكر أنَّ أحد الإخوة في الهند نبَّهـه أيضًا إلى هذه الملاحظـة، وأنَّ الكتاب حينما نُشِرَ بالأورديَّة كان له عنوان آخر.

QaradawiBooks.com

الثانية: أنَّ هناك أناسًا أخذوا كلام المودودي، ورتَّبوا عليه نتائج لم يُرَتِّبها المودودي نفسه، وإن كانت قد تلزم من مفهوم كلامه، ولكنَّ المعروف عند المُحَقِّقين من علماء الأُمَّة: أنَّ لازم المذهبِ ليس بمذهب. وأنَّ العالم لا يُؤاخذ إلَّا بما التزمه صراحة من الأقوال والأفكار، فقد يرى العالم الرأي، ويؤمن به، ويدعو إليه، ولا يَخْطُر له لازمه على بال.

فإذا وجدنا بعض الغُلاة من منتحلي بدعة «التكفير» وأشياعهم، أخذوا كلمات معيَّنة ممَّا كتبه الأستاذ المودودي، مستشهدين بها لما ذهبوا إليه من تطرُّف في الفكر، وغلوٍّ في الدِّين، وكفَّروا بها جماهير المسلمين، فالمودودي ليس مسؤولًا عن ذلك؛ لأنَّه لم يرِد بكلامه نَفْس ما أرادوا، ولم ينتهِ به إلى ما انتهوا إليه من نتائج في الاعتقاد والسلوك.

ولقد أساء النَّاس قديمًا وحديثًا فهم كلام الله تعالى وكلامِ رسوله ﷺ، ولم يكن هذا عيبًا في كلام الله جل شأنه، ولا في كلام رسوله الكريم، بل كان عيبًا فيمن ساء فهمُه، وانحرف عقلُه، من الَّذين يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، على نحو ما قال أبو الطيِّب:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وآفتُه من الفَهْمِ السَّقِيمِ[1]!

وقال:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِه المَاءَ الزُّلَالَا[2]!

الثالثة: تتعلَّق بموقف الإمام المودودي من هذا النقد الموجَّه إلى كتابه، وهو الموقف اللائق بمثله، أمانةً وتواضعًا وإنصافًا، فقد ذكر

(١) الحماسة المغربية (١٢٥٧/٢)، تحقيق محمد رضوان الداية، نشر دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩١م. وديوان المتنبي صـ ٢٣٢، نشر دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٣م.

(٢) ديوانه صـ ١٤١.

QaradawiBooks.com

الأســتاذ الندوي في كلمته المخلصة الَّتي رثى بها المودودي في مجلة «البعث الإســلامي»، الَّتي تصدر عن ندوة العلماء بالهند: أنَّ الأســتاذ المودودي رحَّب بنقد الأســتاذ الندوي، وشــكره عليه، وتمنَّى لو كتب ملاحظاته على جميع مؤلفاته، فليس في العلم كبير، والمؤمن مرآةُ أخيه، والمسلمون ينصح بعضهم لبعض.

نقد د. محمَّد عمارة:

وممَّن انتقد الأســتاذ المودودي في حديثه عــن الجاهليَّة والتكفير: المُفَكِّر المصري المســلم الدكتور محمَّد عمارة، الَّذي يرى أنَّه غلا في وصف المجتمعات المسلمة المعاصرة، بل ضمَّ إليها التاريخ الإسلامي، والحضارة الإســلاميَّة كلَّها، فوصفها بالجاهليَّة، ويــرى ذلك ضربًا من المجازفة: يقول في بحثه الَّذي قدمــه لندوة «اقرأ» الإعلاميَّة في رمضان ١٤٢٤هـ: «لكنَّ المودودي قد انطلق من دعوى غَيْبة الحاكميَّة الإلٰهيَّة عن المجتمعات الإسلاميَّة والدول الإسلاميَّة ـ فضلًا عن مجتمعات الحضارة الغربيَّة ـ فذهــب من هذا المنطلــق إلى الحكم علــى كلِّ المجتمعات الإســلاميَّة ودولها بالجاهليَّة ـ ومن ثَمَّ بالكفر ـ وذلــك دون أن يُكَفِّر الأفراد أو الأُمَّة.

بل ذهبت بــه المجازفة إلى الحكم بســيادة الجاهليَّــة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإســلاميَّة منذ الســنوات الأخيرة لخلافة الراشد الثالث عثمان بن عفان (٣٥ ـ ٤٧هـ = ٥٧٧ ـ ٦٥٦م)!

لقد وصف جاهليَّة الغرب: إنَّه عصر الجاهليَّــة المحضة، الجديدة، والمعاصرة، والمتحضرة.

QaradawiBooks.com

وكتب عن ارتداد حضارتنا الإسلاميَّة وثقافة أُمَّتنا الإسلاميَّة، والنظام الاجتماعي الإسلامي إلى الجاهليَّة منذ عهد عثمان بن عفان، وذكر أنَّ الغايات الَّتي حقَّقها النبيُّ ﷺ قد سار على نهجه فيها أبو بكر الصِّدِّيق (٥٢ق. هـ ـ ١٣هـ = ٥٧٣ ـ ٦٣٤م)، وعمر الفاروق (٤٠ق. هـ ـ ٢٣هـ = ٥٨٤ ـ ٦٤٤م).

ثم انتقل الأمر بعدهما إلى سيِّدنا عثمان رضي الله عنه، وبقي على ما أقامه عليه النبيُّ إلى عدَّة من السنين في صدر ذلك العهد، ولكنَّ الخليفة الثالث كان لا يتَّصف بتلك الخصائص الَّتي أوتيها العظيمان اللَّذان سبقاه، فلقد كان ينقُصُه بعض تلك الصفات اللازمة للحُكم والأمر، الَّتي كانت على أتمِّها في أبي بكر وعمر، فوجدت الجاهليَّة سبيلها إلى النظام الاجتماعي الإسلامي، وإنَّ تيارها الجارف، وإنْ حاول عثمان صدَّه ببذل نفسه ومُهْجَتِه، إلَّا أنَّه لم ينكفئ.

ثم خَلَفه عليٌّ (٢٣ق.هـ ـ ٤٠هـ = ٦٠٠ ـ ٦٦١م) كرَّم الله وجهه، واستفرغ جهده لمنع هذه الفتنة، وصيانة السلطة السياسيَّة في الإسلام من تمكُّن الجاهليَّة منها، ولكنَّه لم يستطع أن يدفع هذا الانقلاب الرجعي المركوس حتَّى ببذل نفسه، فانتهى بذلك عهد الخلافة على منهاج النبوَّة، وحلَّ مَحَلَّها الملكُ العَضُوض (Tyrant Kingdom)، وبدأ الحكم والسلطة يقومان على قواعد الجاهليَّة بدلًا من قواعد الإسلام»[١].

ويمضي المودودي فيقول عن هذه الرِّدَّة إلى الجاهليَّة: «كان من الطبيعي أنْ يصحب ذلك كلَّه رواجُ فلسفة الجاهليَّة وآدابها وفنونها، فتُدَوَّن العلوم والمعارف على طرازها»[٢].

(١) موجز تاريخ تجديد الدين صـ ٤٣، ٤٤.
(٢) موجز تاريخ تجديد الدين صـ ٤٦ ـ ٦٤.

QaradawiBooks.com

ثم قال في كتاب «الحكومة الإسلاميَّة»: «فالدول والحكومات الَّتي كانت تقوم على مبادئ غير إسلاميَّة تُسمُّونها حكوماتٍ ودولًا إسلاميَّة، لمجرَّد أنَّ حاكمها كان مسلمًا، والحضارة الَّتي ازدهرت في بلاطات وقصور الملذَّات الدنيويَّة في قرطبة وبغداد ودلهي والقاهرة تدعونها حضارة إسلاميَّة، بينما لا دخل للإسلام فيها ولا صلة. وإذا أردتم ذكر مفاخر التاريخ الإسلامي ذكرتم أعمال العباسيِّين والسلاجقة والمغول العظيمة، بينما هي من وجهة نظر التاريخ الإسلامي الحقيقي تستحقُّ أنْ تُكتب في سجلِّ الجرائم بمِدَادٍ أسود»[1].

تعقيبٌ مُتمهِّل:

ولا ريب أنَّ حكم المودودي على الحضارة الغربيَّة بالجاهليَّة حكمٌ صحيح، نظرًا للاتِّجاه العامِّ فيها، والرُّوح الغالبة عليها، فهي ـ كما قال ليوبولد فايس (محمد أسد) ـ لا تجعل لله مكانًا في نظامها الفِكْري الحالي، وفلسفتها العامَّة تقوم على المادِّيَّة المُجْحفة، والإباحيَّة المُسْرِفة، والنفعيَّة المُتَطَرِّفة، فالاعتبار الأخلاقي لا مكان له في اقتصادها ولا سياستها، ولا في سلمها ولا في حربها، وهي كلُّها تتبنَّى مبدأ: «الغاية تُبَرِّر الوسيلة».

أمَّا حكمه على التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميَّة فهو حكمٌ قاسٍ، بل شديد القسوة، وقد ناقشناه في كتابنا «تاريخنا المفترى عليه»، وبيَّنَّا خطأ هذه النظرة السوداء إلى تاريخنا وحضارتنا، وذكرنا هناك: أنَّ المودودي وغيره من الكُتَّاب والمُفَكِّرين الإسلاميِّين، مثل سيِّد قطب والشيخ محمَّد الغزالي، وأبي الحسن الندوي ـ إلى حدٍّ ما ـ كانوا ضحية مصادرنا الَّتي نقلت إلينا صورة غير صادقة تمامًا عن تاريخنا الإسلامي.

(١) الحكومة الإسلامية صـ ٢٤٧، ترجمة أحمد إدريس، نشر مطابع المختار الإسلامي، ط ٢.

QaradawiBooks.com

كما بيَّنَّا مسؤوليَّة المؤرِّخين المسلمين، ومسؤوليَّة علماء الحديث، ومسؤوليَّة مؤرِّخي الأدب: في تشويه هذه الصورة، وإعطاء هذا الانطباع الزائف عن تاريخنا[١].

بيد أنَّ الإمام المودودي ـ غفر الله له ـ كان أقسى المتحدِّثين عن تاريخنا عبارةً، وأشدَّهم حرارةً، لذا كان نقد الدكتور عمارة له في هذا الموقف شديدًا مُرًّا، برغم دفاعه المجيد عنه فيما كتبه من قبل.

لقد اعتبر الأستاذ المودودي عصر الصحابة والتابعين وأتباعهم من العصور الَّتي وثبت عليها الجاهليَّة، وحَرَفَتْها عن مسارها الإسلامي، مع أنَّ هذه العصور هي العصور الَّتي استفاضت فيها الأحاديث الصحاح، بأنَّها خير قرون هذه الأُمَّة: «**خير القرون قرني، ثُمَّ الَّذين يلونهم، ثُمَّ الَّذين يلونهم**»[٢]. وذلك لأنَّ نور النبوَّة كان لا يزال قويَّ التأثير في هذه القرون، أو هذه العصور، وهي عصور الفتوحات الَّتي شرَّقت وغرَّبت، ودخلت فيها الأمم في الإسلام، وكان لبني أُمَيَّة فيها إسهام كبير لا ينكره إلَّا مكابر، ففي عصرهم دخل الإسلام إلى الهند وسمرقند والصين شرقًا، وإلى الأندلس (إسبانيا) غربًا.

وانظر إلى الرُّوح الَّتي كتب بها العلامة المودودي عن الحضارة الإسلاميَّة، والروح الَّتي كتب بها علَّامة آخر، هو الداعية الإسلامي مصطفى السِّبَاعي في كتابه الرائع البديع «من روائع حضارتنا»، وما قدَّم فيه من إنجازات هذه الحضارة وخدماتها للمسلمين وللبشريَّة كلِّها بصفة عامَّة.

(١) تاريخنا المفترى عليه صـ ٤٧ وما بعدها، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٦م.

(٢) متَّفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، عن عمران بن حصين.

QaradawiBooks.com

ضمُّ كلامِ المودودي بعضه إلى بعض:

على أنِّي أنصح دائمًا: ألَّا يُحكم على المودودي بما يكتبه في موضعٍ من كتبه، حتَّى نطَّلِعَ على تراثه كلِّه، فإنَّ ما أطلقه في كتاب يُقَيِّده في آخر، وما عمَّمه في رسالة خصَّصه في رسالةٍ أخرى، وما أجمله في محاضرةٍ أو خطبةٍ قد فصَّله في محاضرةٍ أو كتابٍ أو مقالٍ آخر.

وإذا كنَّا نفعل ذلك في فهمنا لكلام الله الحكيم، وفي فهمنا للقرآن الكريم، فكيف لا نفعله في فهمنا لكلام المخلوقين، وحُكْمنا لهم أو عليهم؟!

وأودُّ من القارئ المتأمِّل المنصف: أنْ يقرأ معي هذه الفقرة من نفس كتابه الَّذي شَنَّ فيه الغارة على التاريخ والحضارة الإسلاميَّة. يقول في «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» تحت عنوان «الحاجة إلى المُجَدِّدين»: «لا يذهب بأحدٍ الظنُّ في هذا الصدد أن كانت الجاهليَّة قد محت آيةَ الإسلام تمامًا، وذهبت بآثاره جميعًا، وملكت عليه أمره من جميع الوجوه، إبَّان هجومها وطغيانها، بل الواقع أنَّ الشعوب الَّتي كانت خضعت لتأثير الإسلام حينئذٍ أو خضعت لها فيما بعد، لم يزل باقيًا أثر الإصلاح الإسلامي ـ قليلًا أو كثيرًا ـ مدى الدهر.

ولم يكن إلَّا من تأثير الإسلام أنْ كان الآمرون المُطْلَقون من الملوك تأتي عليهم من حياتهم أحيانٌ ترتعد فرائصُهم من خشية الله، فيرجعون عن غيِّهم إلى الرشد، وعن ظلمهم إلى الإنصاف.

وليس إلَّا من ثمرات الإسلام أنَّك تبصر هنا وهناك في الصفحات السُّود من تاريخ المَلَكيَّة لمحات من نور الصلاح والأخلاق الفاضلة، ولم يكن إلَّا من فضل الإسلام أنْ نبغ في البيوتات الحاكمة رجالٌ

QaradawiBooks.com

مؤمنون متَّقون عادلون، تولَّوا الحكم والأمر، مع الشعور التامِّ بمسؤوليَّتهم على قدر الإمكان، على كونهم يملكون سلطان المَلَكِيَّة.

وكذلك ما زال الإسلام يعمُّ ببركاته وخيراته ـ ولو على وجهٍ غير مباشر ـ قصور الدول والحكومات، ومدارس الفلسفة والحكمة، ودور التجارة والصناعة، وزوايا الخَلْوة والاعتكاف، وسائر شُعَب الحياة، واستمرَّ نفوذُه في العامَّة على رغم أنف جاهليَّة الشِّرْك الَّتي كانت فاشية فيهم، وبقي يُؤَثِّر في عقائدهم وأخلاقهم واجتماعهم من جِهَتَي الأمر والنهي والتوجيه والتحذير، ومن كلِّ ذلك ظلَّ مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائمًا من أخلاق سائر الأمم، وفوق ذلك كلِّه ما خلا عصرٌ من العصور من أناسٍ استمسكوا بعُروة الإسلام، وبقُوا يسعَوْن في إحياء هدايته العلميَّة والعمليَّة في حياتهم أنفسهم، وفي الحلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم، بيد أنَّ ذلك كلَّه لم يكن كافيًا لتحقيق الغاية الرئيسيَّة الَّتي بُعِثَ من أجلها الأنبياء عليهم السلام.

فكان الإسلام لا يكفيه أنْ تكون السلطة بيد الجاهليَّة، ويقف الإسلام منها موقف التابع المتخلِّف، ولا كان يكفيه أنْ يكون هنا وهناك رجال متمسِّكون بالإسلام في حياتهم الفرديَّة المحدودة، وتشيع في الحياة الجماعيَّة الواسعة أخلاط شتَّى من الجاهليَّة والإسلام، ولذلك كان ولا يزال الدِّين الإسلامي في كلِّ عصرٍ في حاجة إلى رجال أقوياء، يأتون ويُسَدِّدون خُطَا الزمان، ويوجِّهون مسيره إلى الإسلام، سواء أكان عملهم في ذلك محيطًا شاملًا، أو كان الأمر على بعض النواحي مقتصرًا، وهؤلاء هم الَّذين يُدْعَوْن بـ«المجددين»»[1].

(١) موجز تاريخ تجديد الدين صـ ٤٩، ٥٠.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

انتشار الإسلام في العالم:

ولكي نستكمل الصورة في كتابات الأستاذ المودودي عن التاريخ الإسلامي، ننقل هذه الفقرة من رسالة من رسائله، كتبها بعنوان «الإسلام اليوم»، تحدَّث فيها عن انتشار الإسلام في العالم، وبيَّن فيه القوَّة الذاتيَّة في دعوة الإسلام، فبعد أن تحدَّث عن دعوة الرسول الكريم، وبنائه للأُمَّة المسلمة، والدولة المسلمة المثاليَّة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبعد أن قامت في الدُّنْيا أُمَّة هذه سماتُها وخلالُها، وتأسَّست دولة هذه خصائصها ومزاياها، بدأ الإسلام ينتشر في أرجاء الدُّنْيا في عصر الخلافة الراشدة بسرعة وُصِفَت في التاريخ بكلمة الانفجار (Explosion)، أي مثل السرعة الهائلة الَّتي أخذ بها الإسلام في الانتشار والازدهار كمثل انفجار المتفجِّرات، ولم تمضِ إلَّا سنوات قليلة حتَّى امتدت المسيرة الإسلاميَّة من بلاد الأفغان والتركستان شرقًا إلى أفريقيا الشماليَّة غربًا.

ونتيجة أيِّ شيء كان هذا الانفجار الرائع يا تُرَى؟! ولكم أنْ تذهبوا إلى جزيرة العرب اليوم لتنظروا كم نسبة العمالقة فيها؟ وما هي مصادر الثروة المادِّيَّة في هذه الجزيرة؟ دعوا البترول، فإنَّه لم يُكْتَشَف إلَّا مؤخَّرًا، ماذا فيها من الوسائل المادِّيَّة بعد البترول؟ وانظروا كذلك إلى عددهم: يكاد لا يزيد عددهم في جزيرة العرب بأسرها على عشرة ملايين من النفوس. ومن المؤكَّد أن كان عددهم في عصر الخلافة الراشدة أقل بكثير من هذا، فهيمنة شعب كهذا، على هذا القدر من المساحة الأرضيَّة، وبهذه الصورة الفجائيَّة لم تكن في الواقع حصيلة تفوُّقه على غيره في القوَّة المادِّيَّة، بل السبب الَّذي مكَّنه لإخضاع رقاب العالم كُلِّيَّة يكمن في ذلك السلوك الرائع الفريد الَّذي سلكه كلُّ فرد من المسلمين بصفته

QaradawiBooks.com

الفرديَّة، والأُمَّة الإسلاميَّة بصفتها الجماعيَّة، في الصلح والحرب، وإدارة البلاد المفتوحة، وحُسن المعاملة مع شعوبها.

إنَّ الَّذين عاشـوا تحت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة والإمبراطوريَّة الروميَّة كرعايا لم يكونوا يتصوَّرون ـ بَلْهَ أن يشهدوا ـ ذلك النوع الفريد من الوُلاة الَّذين يمشون على الأقدام وفي الشوارع، يعيشـون عِيشَة عامَّة السكان، ويتركون أبوابهم مفتوحةً على مصراعَيْها في وجه كلِّ من مسَّته الحاجة، ويضع يدَه في عنقهم كلُّ من داهمته الداهية، ليطلب منهم إزالة شَكْواه.

إنَّ سُـكَّان فارسَ والرومِ ما رأوا هذا النمطَ الرائـع من الحُكَّام في الأحلام، فضلًا عن أن يروه في اليقظة، بل لم يكن يدور بخَلَدهم احتمالٌ بوجود هذا النوع الفريد مـن رجال الحكـم والإرادة، إلَّا أنَّه لما دخل النظام الإسلامي بسـمُوِّه ونظافته أرض هذه البلدان، وقدَّم لسكانها هذا النوع من الولاة، فمن ذا عسى أن يكون منهم من يمنعه التعصُّب الأعمى من ألَّا يعترف بهذا التفوُّق الخُلُقي والسموِّ الإنساني، اللَّذَيْن يتفرَّد بهما الإسلام، اللهمَّ إلَّا شِـرْذمة قليلة، طمس الباطلُ معالم فِطْرتها، وعميت أبصارها عن رؤية الحقِّ.

ومن النمـاذج الرائعة في السـموِّ الخلقـي الَّذي عرضتـه الجنود الإسـلاميَّة على الدنيا: أنَّها كانـت تدخل مدينة تفتحهـا، وتجوب في شوارعها، ونساء هذه المدينة واقفات في الشُّرُفات في أبهى ثياب التبرُّج والإغراء، يتطلَّعن إلى المواكب، ولم يحـاول جنديٌّ من هؤلاء الجنود البواسل أن يرفع رأسـه، وينظر إليهنَّ ولو بنظرةٍ عابرة، تقطع المواكب الشوارع بدون أن تعلم ما إذا كان هناك من النساء من يطللن عليهن من الشرفات. الأمر الَّذي كان يختلف تمامًا عمَّا جرَّبته تلك الأمم المغلوبة

QaradawiBooks.com

من ويلات الغزاة فيما خلا من القرون، وما تناقلــه النَّاس من القصص والحكايات عن الأمم الغازية، إذ كان من السُّــنَّة المتبعة أنَّه كلَّما وطئ الغزاة أرضَ قوم، عاثوا فيها فســادًا، ولم يتركوا عِــرْض امرأة منهم إلَّا وانتهكوه، وارتكبوا معها الفظائع، فبعد هــذه المواقف الفذَّة مع أهالي البلاد المفتوحة، كيف كان من الممكن ألَّا تكســب الجيوش الإسلاميَّة قلوبها، الجيوش الَّتي تكتســح المناطق بــدون أنْ تنتهك حرمةَ أحدٍ أو تمسَّ بكرامة أحد.

وكذلك مــن روائع الأخــلاق الَّتي تَقَــدَّم بها هــؤلاء الفاتحون الربَّانيُّون الجُدد أمم الدنيا: أنَّهم إذا اضطروا إلى سحب جيوشهم من منطقة من المناطق المفتوحة، أعادوا إلى أهاليها كلَّ ما أخذوه منهم، من الضرائب والأموال لدعم الأمن فيها، قائلين: إنَّ هذه الضرائب إنَّما أخذناها منكم للقيام بواجب حراستكم، إلَّا أنَّنا اضطُرِرْنا للانسحاب، ولا نتمكَّن من القيام بهذه المسؤوليَّة، فهذه بضاعتكم رُدَّت إليكم[1]. هذا في الوقت الَّذي لم يكن النَّاس يعرفون مــن الغزاة إلَّا الَّذين إذا اضطروا للجلاء من بلدٍ من البلــدان المحتلَّة، فبدلًا من أن يردوا إلى أهاليها ما كانوا قد جلبــوه منهم من الأموال، كانــوا ينهبون ما تبقى عندهم من الأموال، فلم يكن أحدٌ من النَّاس يتوقَّع من الحُكَّام والولاة أنْ يحتذوا ما عرف عن أنبيــاء الله وأوليائه من الســجايا والفضائل، ويحتلُّوا هذه المكانة الســامية من الأمانة والنزاهــة، حتَّى في مجال السياسة والحكم.

(١) رواه أبو يوسف في الخراج صـ ١٥٣، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وسعد حسن محمد، نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

QaradawiBooks.com

هذه هي الطاقة الهائلة الَّتي تمتَّع بها المسلمون في صدر الإسلام، فغزوا بفضلها القسم الأكبر من العالم، ومن الحقيقة الَّتي لا يكابر فيها أحد: أنَّ الَّذي حقَّقته أخلاقهم السامية، وسلوكهم النزيه من المعجزات، لا يُقارن بما أنجزته سيوفهم؛ لأنَّ من اعتنق منهم الإسلام اعتنقه بعد إدراكه الكامل لحقيقته ومقتضياته، ثُمَّ صاغ فيه شخصيَّته وسيرته وسلوكه، ولذلك أيُّما عملٍ قاموا به مثَّلوا فيه الإسلام بكامل الوجه، وبهذه الخاصِّيَّة الربَّانيَّة لم تستطع أيَّة قوَّة في العالم أن تصمد في وجههم، وكان يسبق تأثيرُ أخلاقهم في قلوب النَّاس مَضاءَ سيوفهم في عنقهم.

ولهذا السبب نفسه، نرى أنَّ الأقطار الَّتي فتحوها لم يكتفِ سُكَّانها بالخضوع لقوَّتهم السياسيَّة، بل أصبحوا من المُولَعِين بهم، والمُرِيدين لهم، اعتنقوا دينهم، واتَّبعوا حضارتهم، وارتضوا لُغَتهم، وها هي الأقطار الَّتي فتحها المسلمون الأوائل ما زال سُكَّانها يعتبرونهم على مدار التاريخ أبطالهم وروَّادهم، ولا يُحِبُّون أن يرجعوا بأواصرهم إلى أسلافهم الكافرين، أو يَنْسبوا إليهم ماضيهم التليد، فهل لسيف أنْ يُحَقِّق هذه المعجزة في العالم؟

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل التاريخ الإسلامي. ولا أريد في هذا المقام سرد المعلومات التفصيليَّة عن هذه المرحلة، وإنَّما الَّذي يهمني أنْ أؤكد لكم أنَّ الإسلام إذا تمكَّن من بسط سلطانه المدهش على القسم الأكبر من العالم، لم يتمكَّن من ذلك إلَّا لأجل أنَّ الأُمَّة بكاملها قد آمنت بالإسلام إيمانًا صادقًا، وتمسَّكت به بعزيمةٍ ماضية، وتفهُّمٍ صادق، وإخلاصٍ عميق، وصار نور الإسلام يتلألأ في سلوك أفرادها الفردي والجماعي بمنتهى النصوع والكمال.

QaradawiBooks.com

وقد برزت إلى الوجود دولةٌ تبنَّت الإسلام هدفًا رئيسيًّا لها، وهبَّت تستنفد كلَّ ما تملك من الوسائل والإمكانيات لتغليب كلمته في العالم، وهكذا تيسَّرت للإسلام في أولى مراحله حركة مستميتة قويَّة، ما زالت آثارها في التاريخ واضحة المعالم، جليَّة الملامح حتَّى اليوم، وبعد مرور ثلاثة عشر قرنًا على إنشائها. وتستطيعون أن تشاهدوا ـ مع هذه الحالة التعيسة الَّتي تدنت إليها الأُمَّة الإسلاميَّة ـ آثارَ الطابَع الَّذي انطبعت به الأُمَّة الإسلاميَّة في أولى مراحل تاريخها.

إنَّ أيَّ فردٍ من المسلمين مهما فسد أمرُه، وساءت أخلاقُه، إذا استشففْتَ ذاتَ نفْسِه، وجسستَ نَبْضَه تعلم أنَّه لا يحنُّ إلَّا إلى نفْسِ المجتمع المثالي، الَّذي أسَّسه محمَّد ﷺ وخلفاؤه الراشدون. وهذا هو الهدف الَّذي يطمح إليه دائمًا، ولا يتناساه أبدًا، كأنَّ هذا المجتمع شمسٌ تُشْرِق أمامه بنورها الساطع بصفةٍ دائمة، لا يَدَعُها تغيب عن نظره.

إنَّ كلَّ فرد من المسلمين يرى هذه المرحلة الذهبيَّة نموذجًا وقدوة، ويُولَعُ بها لحدِّ الغرام، ويتمنَّى رؤيتها متمثِّلة في الواقع مرة ثانية. وما انفكَّ الإسلام يُشِعُّ بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم، ولم يبقَ صقع من أصقاع العالم، إلَّا قد تغلغلت إليه أشعَّته، وقد نال هذا الازدهار على رغم ما مُنِيَتْ به هذه الأُمَّة من الأمراء المنغمسين في حياة الترف والبذخ، ونُكِبَتْ بالطغاة والجبابرة، ولم تعدم متعاطي المنكرات في يوم من الأيام، ولم تعُدْ منذ مدَّة غير قصيرة أُمَّة مثاليَّة تُحتذى وتنجذب إليها قلوب الناس. ولكنْ رغم كلِّ ذلك لم تقف دعوة الإسلام من الانتشار، وليس مرجعه كون المسلمين على طريقة مُثْلى في الحياة تستهوي النَّاس إلى دِينهم، بل الَّذين يعتنقون الإسلام من غير المسلمين

QaradawiBooks.com

لا يعتنقونه إلَّا بعد أنْ يتأكَّدوا أنَّ الإسلام ليس الَّذي يتمثَّل في واقع المسلمين، وإنَّما الإسلام الحقيقي هو الَّذي جاء به محمَّد ﷺ وأصحابه.

ثُمَّ إنَّما يوجد اليوم في واقع المسلمين من بعض السموِّ والنظافة وجوانب الخير في تفكيرهم وأعمالهم وسلوكهم وخُلُقهم، فليس كلُّ ذلك إلَّا البقيَّة الباقية من الآثار الَّتي تركها الإسلام فيهم، ولا تزال تعمل عملها على مرور أربعة عشر قرنًا. وبكلمة أخرى: إنَّ المرحلة الأولى من تاريخها كانت تبلغ من حيويَّتِها درجةً استحال معها أنْ يزول أثر طابَعها على التاريخ، بل إنَّ الحيويَّة الَّتي تشاهدونها اليوم في العمل الإسلامي هي ناتجة عن تلك الحركة المثاليَّة الَّتي أنشأها الإسلام في أولى مراحله»[(١)] اهـ.

فانظرْ وتأمَّل قوله هنا: «وما انفكَّ الإسلام يُشِعُّ بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم، ولم يبقَ صقعٌ من أصقاع العالم إلَّا وقد تغلغلت إليه أَشِعَّتُه»!

ويُؤكِّد أنَّ المرحلة الأولى من تاريخنا بلغت من حيويَّتها وقوَّة تأثيرها درجة استحال معها أنْ يزول أثر طابعها على التاريخ!

كما يؤكِّد أنَّ الحيويَّة الَّتي نُشاهدها في العمل الإسلامي اليوم، هي من آثار تلك الحركة المثاليَّة الَّتي أنشأها الإسلام في أولى مراحله.

وهو بهذا يؤكِّد ما جاء في الحديث الَّذي رواه أحمد والتِّرْمِذي وابن حِبَّان وغيرهم، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ مَثَلَ أُمَّتي مثلُ المطر، لا يُدْرى أوَّله خيرٌ أو آخِرُه**»[(٢)].

(١) الإسلام اليوم لأبي الأعلى المودودي صـ ٢٠ ـ ٢٥، نشر الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط ٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) روي هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: أنس، رواه أحمد (١٢٤٦١)، وقال مخرِّجوه: =

QaradawiBooks.com

كثرة الملوك الصالحين في عصور الملكيَّة الإسلاميَّة:

ومع شدَّة الأستاذ المودودي على المرحلة الَّتي سمَّاها «المرحلة المَلَكِيَّة» من تاريخنا، وما حدث فيها من تغيُّر في الحياة الإسلاميَّة، من قلَّة النماذج الإسلاميَّة الرفيعة من المسلمين، ومن إهمال الدعوة إلى الإسلام، وتحويل الدولة الإسلاميَّة إلى دولة جباية لا دولة هداية، على خلاف ما قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: إنَّ الله بعث رسوله هاديًا، ولم يبعثه جابيًا[1]!

على الرغم من هذا، اعترف المودودي بكثرة الملوك الصالحين والأتقياء في التاريخ الإسلامي، فقال: «وممَّا لا يستحقُّ الجدل أنَّ عصر المَلَكِيَّة في التاريخ الإسلامي لا يُقاس أبدًا بعصور المَلَكِيَّة في تاريخ الشعوب الأخرى؛ لأنَّ المَلَكِيَّة في تاريخنا الإسلامي مع ما جاءت به مشحونة بكثير من السيِّئات والويلات، إلَّا أنَّك لن ترى عبر التاريخ الإسلامي تلك العصور المظلمة، الَّتي هي علائمُ بارزة في تاريخ الأمم الأخرى.

ولا أملك نفسي في هذه المناسبة إلَّا لأسجِّلَ إعجابي واستحساني لما توافر في التاريخ الإسلامي من الملوك الأتقياء الصالحين، وما استطاع أي شعب أنْ ينجب هذا العدد الوفير من الملوك الصالحين»[2].

وإنْ عاب عليهم أنَّهم لم يقوموا بأمر الدعوة إلى الإسلام كما ينبغي، وهذا أمر عام في التاريخ الإسلامي كلِّه، وجب أنْ يُبحث على حِدَة.

= حديث قويٌّ بطرقه وشواهده. والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩)، وقال حسن غريب. ومنهم عمار، رواه أحمد (١٨٨٨١)، وقال مخرِّجوه: حديث قوي بطرقه وشواهده. والطيالسي (٦٨٢)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٢٢٦).

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٨٤/٥)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٢) الإسلام اليوم صـ ٣٠.

QaradawiBooks.com

قضيَّة الحاكميَّة وما أثارته من جدل:

وممَّا عيب على الأستاذ المودودي: أنَّه أوَّل من نادى بفكرة «الحاكميَّة»، الَّتي اقتبسها منه الشهيد سيِّد قطب، ويحمِّلون هذه الفكرة وزر «التكفير» وجماعاته، كما أنَّها قديمًا كانت سبب فتنة الخوارج الَّذين قالوا: لا حُكْمَ إلَّا لله!

صحيحٌ أنَّ قضيَّة «الحاكميَّة» قد ألحَّ عليها الأستاذ المودودي إلحاحًا بيِّنًا، حتَّى تكاد تعتبر هي المحور المركزي الَّذي يدور حوله كثير من أفكاره ونظراته.

وأنَّ الفكرة في ذاتها إسلاميَّة أصوليَّة صحيحة، وقد سبق أنْ قرَّرها علماء أصول الفقه من قرون، فها نحن نجد إمامًا مثل أبي حامد الغزالي يتحدَّث في مقدِّمات كتابه الشهير «المستصفى من علم الأصول» عن «الحُكْم» الَّذي هو أوَّل مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حُكْمَ قبل ورود الشرع، وله تعلُّق بالحاكم وهو الشارع، وبالمحكوم عليه وهو المُكَلَّف، وبالمحكوم فيه وهو فِعْلُ المُكَلَّف، ثُمَّ يقول: «وفي البحث عن الحكم يتبيَّن أن «لا حُكْمَ إلَّا لله»، وأنَّه لا حكم للرسول، ولا للسيِّد على العبد، ولا لمخلوقٍ على مخلوق، بل كلُّ ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا حكم لغيره»[1].

ثُمَّ يعود إلى الحديث عن «الحاكم» وهو صاحب الخطاب الموجَّه إلى المُكَلَّفين، فيقول: «أمَّا استحقاق نفوذِ الحُكْم فليس إلَّا لمن له

(١) المستصفى صـ ٨، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، نشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

الخَلْق والأمر، فإنَّمـا النافذ حكم المالك علـى مملوكه، ولا مالك إلَّا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلَّا له.

أمَّا النبيُّ ﷺ والسلطان والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شـيءٌ بإيجابهم، بل بإيجاب الله تعالى طاعتهم. ولـولا ذلك لكان كلُّ مخلوقٍ أوجب على غيـره شـيئًا، كان للمُوجَب عليـه أن يقلب عليه الإيجـاب؛ إذ ليس أحدهما أولى مـن الآخر، فـإذن الواجب طاعة الله تعالى، وطاعةُ من أوجب الله تعالى طاعتَه»[1].

إنَّ إثبات «الحاكميَّـة» لله أمرٌ مقرَّر في الإسـلام، وانفراد الله تعالى بالحاكميَّة لخلقه أحد عناصر التوحيد الَّتي قرَّرها القرآن، وخصوصًا في سورة الأنعام، وهي ثلاثة عناصر أساسيَّة:

١ ـ ألَّا يُتَّخذُ غيرُ الله وليًّا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

٢ ـ ألَّا يُبتغى غيـرُ الله حَكَمًا، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

٣ ـ ألَّا يُبتغـى غيـرُ الله ربًّـا، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

---

(١) المستصفى صـ ٦٦، وفي فواتح الرحموت شـرح مسلم الثبوت: مسألة: لا حكم إلَّا من الله تعالى، بإجماع الأمة، لا كما في كتب المشايخ: أنَّ هذا عندنا، وعند بعض المعتزلة: الحاكم العقل، فإن هذا مما لا يجترئ عليه أحد ممن يدعي الإسـلام، بـل إنَّما يقولون: إنَّ العقل معرف لبعض الأحكام الإلٰهية، سواء ورد به الشـرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضًا. يعني الماتريدية. انظر: فواتح الرحموت (٢٣/١)، نشـر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

إلى عددٍ من الآيات الأخرى الَّتي تثبت له الاختصاص بالحكم سبحانه، وتنفيه عن غيره، كقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وإن كان «الحكم» في الآيات الأخيرة قد يراد به «الحكم الكوني»، أي التصرُّف المُطْلَق في الكون، بحيث إذا قضى أمرًا قال له: كنْ، فيكون. لا «الحُكْم الأَمْري» التشريعي، وهو المراد من كلمة «الحاكميَّة».

وعلى كلِّ حال، إذا كان المراد من الحاكميَّة: السيادة والهيمنة التشريعيَّة العليا والمُطلقة، الَّتي تملك وحدها الأمر والنهي، والإذن والمنع، والتحليل والتحريم، والإلزام والإيجاب. فهذه لا شك أنَّها لله وحده، فهو الَّذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وله وحده أن يكلف خلقه بما يشاء، ويعفيهم ممَّا شاء.

وأما إن كان المراد بهذه «الحاكميَّة»: منع البشر من التقنين مطلقًا، ورفض أي حاكميَّة بشريَّة مقيَّدة، كما كان رأي الخوارج الساذج قديمًا، حينما رفضوا التحكيم بين المسلمين فيما تنازعوا فيه، وقالوا: لا حكم إلَّا لله. واتَّهموا الإمام المُرْتَضى عليًّا رضي الله عنه، بأنَّه حَكَّم الرجالَ في دِين الله؛ إن كان هذا هو المراد بالحاكميَّة، كما قد يُفهم أحيانًا من بعض عبارات العلَّامة المودودي، فهو أمرٌ مرفوض. وقد ردَّ حبر الأُمَّة ابن عبَّاس على الخوارج، وحاجَّهم بكتاب الله الَّذي شرع التحكيم بين الزوجين إذا خيف شقاق بينهما، وفي قتل المُحْرِم للصيد: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٩٥][1].

(١) رواه النسائي في الكبرى في الخصائص (٨٥٢٢)، والحاكم في قتال أهل البغي (٢/١٥٠، ١٥١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

QaradawiBooks.com

ويجب على الـــدراس المُنْصِف هنا: أن يضـــمَّ كلامَ المودودي بعضه إلى بعض، ولا يكتفي بكتابٍ عن آخر، ولا بفترةٍ عن أخرى، فرُبَّما صنَّف بعضَ الكتب والرســائل وهو في ســنِّ الشباب الدافق المتحمِّس، قبل تقسيم الهند وظهور دولة باكستان الإسلاميَّة، وقبل اكتمال نُضْجه وتجربته، فقد كتب رسالة «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» في ســنة ١٩٤٠م، وهي في الأصل مقالة مطوَّلة نشرت في مجلة «الفرقان»، في عددها الخــاصِّ بذكرى الإمام المجدد ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ).

نطاق التشريع:

انظــر ما قالــه المــودودي بصراحة فــي كتابه عــن «الحكومة الإسلاميَّة» عن التشريع ودور الأُمَّة فيه، فبعد أنْ تحدَّث عن الحاكميَّة ومعناها قال: «قد يظنُّ البعض حين يســمع هذه الحقائق الرئيسيَّة أنَّ الدولة الإســلاميَّة بهذه الصورة لا مجــال فيها أمام الإنســان على الإطلاق لقيامه بالتشريع والتقنين؛ لأنَّ الله في هذه الدولة هو المُشَرِّع الوحيد، ولا عمل للمسلمين سوى اتِّباع قانونه وتشريعاته، الَّتي قدَّمها لهم الرسول ﷺ.

غير أنَّ الإســلام في الواقع لم يُغْلِقْ باب التشريع تمامًا في وجه الإنســان، وإنَّما حدَّده وضيَّق إطــاره بأنْ جعل الحاكميَّة والســيادة للقانون الإلٰهي.

فما هي الدائرة الَّتي يقوم الإنسان فيها بالتشريع في ظلِّ هذا القانون الأعلى؟ هذا ما سأوضِّحه باختصار فيما يلي:

QaradawiBooks.com

توضيح الأحكام:

ثَمَّة قِسْمٌ من أمور الحياة الإنسانيَّة أصدر القرآن والسُّنَّة فيه حُكْمًا قاطعًا، أو وَضعًا له قاعدةً خاصَّة، وفي مثل هذه الأمور لا يستطيع أيُّ فقيهٍ أو قاضٍ أو مُشَرِّع أنْ يُغَيِّر ما صدر فيها من أحكام، أو ما تَقَرَّر لها من قواعد.

لكن هذا لا يعني أنَّ الإنسان لا يستطيع التحرُّك في مَيْدان التشريع في هذه الأمور، فدائرة عمله فيها أنْ يعرف جيدًا الحكم الصادر، ثُمَّ يُحَدِّد ويُعَيِّن مفهومه وأصْلَه، ويتحقَّق من الظروف والحالات الَّتي يختصُّ بها هذا الحكم، ثُمَّ يستخرج بالفعل الأشكال والصورة الَّتي ينطبق فيها هذا الحكم على ما قد يقع من المسائل مستقبلًا، ويقوم بوضع الدقائق والتفاصيل الجزئيَّة لمجمل الأحكام والقواعد في الحالات الاستثنائيَّة.

القياس:

كما تضمُّ حياة الإنسان قسمًا آخر، يشمل المسائل الَّتي لم تُدْلِ الشريعةُ فيها بحكمٍ، لكنَّها أصدرت حكمًا في أمور تشابهها. وممارسة التشريع في هذا القسم تكون بفهم أسباب الأحكام وعِللها فهمًا دقيقًا، وتنفيذها في الأمور الَّتي تكمن فيها نفس العلل والدواعي، وتحديد ما هو مستثنى من هذه الأمور، وما يخلو حقيقة من أسباب الحكم ودواعيه[1].

(١) وهذا هو ما يطلق عليه الفقهاء: اسم (القياس)، وهو إلحاق الشيء الذي لم يُنَصَّ عليه بشَبَهه المنصوص عليه، إذا اشتركا في العِلَّة، ولم يوجد بينهما فارق معتبر.

QaradawiBooks.com

الاستنباط:

كما أنَّ هناك قسمًا ثالثًا، لم تُبَيِّن فيه الشـريعة أحكامًا بعَيْنِها، وإنَّما أعطت في شأنه بعض المبادئ العامَّة الجامعة، أو بيَّن الشارعُ المستحبَّ المطلوبَ فعلُه، والمكروه الَّذي ينبغي منعه وإزالته. ومهمَّة التشريع في هذه الدائرة: فهم مبادئ الشريعة وأصولها في هذه المسائل، وكذلك قَصْد الشـارع ممَّا قرَّره من مبادئ، ثُمَّ وضْـع القوانين في الأمـور الواقعيَّة الفعليَّة، بحيـث تُبْنى على ما أوضحته الشـريعة من أصـولٍ ومبادئَ، وبحيث يتحقَّق منها قصْدُ الشارع وهدفُه.

دائرة التشريع الحرِّ:

كذلك ثَمَّةَ قِسْمٌ من حياة الإنسان سكتت الشريعة عنه تمامًا، فليس فيه حكم صريحٌ أو قياسي أو مسـتنبط. وهذا المسكوت في حدِّ ذاته دليل على أنَّ الحاكم الأعلى أعطى الإنسـان حقَّ إبـداء رأيه في أمور ومسائل هذا القسم، ومن ثَمَّ يمارس الإنسان التشريع فيها بحُرِّيَّة تامَّة، شريطة أنْ يتطابق ما يُشَـرِّعه ويتلاءم مع رُوح الإسلام ومبادئه العامَّة، ولا يشذُّ في مزاجه عن مزاج الإسـلام العامِّ، الَّذي يكسو نظام الحياة الإسلامي ويسوده.

الاجتهاد:

إنَّ التشريع الَّذي يُحَرِّك نظام الإسلام القانوني ويُنمِّيه، ويُضيف إليه بمرور وتطوُّر ظروف الزمن وحالاته، إنَّما يتمُّ عن طريق بحثٍ علميٍّ خالص، وتحقيقٍ عقليٍّ دقيق، ويُسمَّى بالاصطلاح الإسلامي «الاجتهاد».

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

والمعنى اللغوي لهذا اللفظ: «بذل قُصارى الجهد في إنجاز عملٍ ما».

ولكن معناه الاصطلاحي: «بذل قُصارى الجهد لمعرفة حكم الإسلام وهدفه في مسألةٍ معيَّنة».

وقد استعمل البعض اصطلاح «الاجتهاد» خطأ في معنى حُرِّيَّة استخدام الرأي، بيْدَ أنَّ أيَّ إنسانٍ يقف على نوعيَّة القانون الإسلامي، هيهات أنْ يقع في خطأ القول بأنَّ مثل هذا النظام القانوني يتَّسع لأيِّ نوعٍ من الاجتهاد الحُرِّ تمامًا؛ إذ يُشَكِّل القرآن والسُّنَّة نواةَ هذا النظام وأصله.

ولا بدَّ لمن يمارس التشريع: إما أنْ يتَّخذ هذا الأصل «الكتاب والسُّنَّة» أساسًا للتشريع، أو أنْ يظلَّ داخلَ إطار تلك الحدود الَّتي تُتاح له فيها حُرِّيَّة إعمال رأيه. أمَّا ما يحدث من اجتهادٍ بعد الاستغناء عن هذا الأصل، فهو ليس اجتهادًا إسلاميًّا، ولا مكان له في نظام الإسلام القانوني»[(١)].

ويؤكِّد المودودي: «إنَّ الاجتهاد الصادر عن تأويلات، وتفاسير عشوائيَّة ـ دون مراعاة لهذه الاحتياطات والشروط ـ من المستحيل أنْ يقبله ضمير المسلمين الاجتماعي، أو أنْ يصبح جزءًا حقيقيًّا من نظام الإسلام القانوني، حتَّى ولو صار في منزلة القانون عن طريق القوة السياسيَّة، وسرعان ما يلقى به في سلَّة المهمَلات، بمجرَّد الإطاحة بالقوة السياسيَّة الَّتي نفَّذته»[(٢)].

(١) الحكومة الإسلامية لأبي الأعلى المودودي صـ ١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) الحكومة الإسلامية صـ ١٧٨.

QaradawiBooks.com

كيف تصبح للاجتهاد منزلة القانون؟

ويعرض الأستاذ المودودي هنا لمسألة هامَّة، وهي: كيف تصبح الاجتهادات الفقهيَّة قانونًا، أو لها منزلة القانون؟ وأجاب بقوله: «توجد في نظام القانون الإسلامي عدَّة حالات صارت لبعض الاجتهادات فيها منزلة القانون.

الأولى: ما يجمع عليه كافَّة أهل العلم في الأُمَّة.

والثانية: الاجتهادات الشخصيَّة أو الجماعيَّة، الَّتي يبدأ النَّاس من أنفسهم في اتِّباعها، بعد أنْ تلقى بينهم قبولًا عامًّا، ومثال ذلك: اتِّخاذ بعض المدن الإسلاميَّة الكبرى الفقه الحنفي أو الشافعي أو المالكي أو الحنبلي قانونًا لها.

والثالثة: الاجتهادات الَّتي اعترفت بها أي حكومة إسلاميَّة، وأقرتها قانونًا لها، مثلما اتَّخذت الدولة العثمانيَّة الفقه الحنفي قانونًا لها[1].

والرابعة: الاجتهادات الَّتي تقوم بها أي مؤسسة إسلاميَّة ذات صفة دستورية في مجال السياسة.

أمَّا ما يقوم به العلماء من اجتهادات ـ عدا هذه الحالات ـ فلا يتعدى منزلة الفتاوى.

والأحكام الَّتي يصدرها القضاء، لا بدَّ من تنفيذها كقوانين في قضايا خاصَّة، ولها صفة السوابق والنمطية (Precedents)، لكنَّها ليست قوانين بالمعنى الكامل الصحيح.

(١) ودوِّن ذلك في مجلة الأحكام، وضعتها لجنة مؤلفة من عدة علماء وفقهاء في الخلافة العثمانية، تحقيق نجيب هواويني، نشر نور محمد، كارخانه تجارتِ كتب، آرام باغ، كراتشي.

QaradawiBooks.com

وحتَّى أحكام وأوامر الخلفاء الراشدين الَّتي كانوا يُصدرونها بوصفهم قضاة، لم يكن يعترف بها قوانين في الإسلام؛ لأنَّ نظام القانون الإسلامي يخلو من وجود قوانين من صنع القضاة (Judge Made Law)»[١].

أعتقد أنَّنا وجدنا المودودي ـ في هذه النقـول الَّتي أوردناها ـ ينظر إلى موضوع الحاكميَّة نظرتنا إليها، ويتيح للعقل المسلم أن يكون له دور في التشـريع أو التقنين للأُمَّة عـن طريق الاجتهاد، الَّـذي لا زال بابه مفتوحًا لأهله، في محله.

وإنَّما يغلق في وجوه الدخلاء، الَّذين ليسوا أهلًا للاجتهاد، أو الَّذين يخرجون عن دائرة ما يسـوغ الاجتهـاد فيه، إلى الدائـرة المغلقة الَّتي لا تقبل الاجتهاد؛ لأنَّها دائرة (الثوابت) القطعيَّة، الَّتي حسمتها النصوص المُحْكَمات.

وقد لخَّص المودودي «مبادئ التشريع» في الإسلام في هذه العبارة الموجزة: «أنْ أدُّوا ما ذُكِرَ من العبـادات، ولا تبتدعوا طريقًا للعبادة. أمَّا في مجال المعاملات، فما صدر فيه حكم فأطيعـوه ونفذوه، وما نهيتم عنه فانتهوا، وما اختار الشارع (الله ورسوله) الصمت إزاءه، فأنتم أحرار في أمره، بما يتفـق ونظرتكم الصائبـة، على ألَّا تشـذوا فيه عن روح الإسلام العامة»[٢].

(١) الحكومة الإسلامية صـ ١٧٨، ١٧٩.

(٢) الحكومة الإسلامية صـ ١٨٤.

QaradawiBooks.com

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

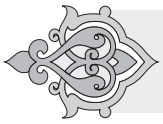

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

غير مرخصة للطباعة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ﴾	٨٠	٤١
﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةً ﴾	١٣٨	٢٥
﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾	١٨٣	٦١
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾	٢٠٨	٣٧
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾	٢١٨	٥٠
سورة آل عمران		
﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾	١٦٤	٧
سورة المائدة		
﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾	٥٠	٤، ٣٢
﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾	٩٥	٩٤
سورة الأنعام		
﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾	١٤	٩٣
﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴾	٥٧	٩٤

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾	١١٤	٩٣
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	١٦٢	٤، ٥٦
﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾	١٦٤	٩٣
سورة الأنفال		
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٦٢	٣٤
سورة هود		
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾	٨٨	٩
سورة يوسف		
﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾	٤٠	٩٤
سورة الرعد		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾	١١	٦٥
﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾	٤١	٩٤
سورة إبراهيم		
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	٤	٢٦
سورة الكهف		
﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾	٢٦	٩٤
سورة طه		
﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾	٨٤	٤٨
سورة الحج		
﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾	٤١	٦٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفرقان		
﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾	٥٢	٤، ٥٢
سورة القصص		
﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٨٨	٩٤
سورة غافر		
﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾	١٢	٩٤
سورة فصلت		
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾	٣٠	٦٢
سورة الملك		
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾	١٤	٢٧
سورة القلم		
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	٤	٧٣

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

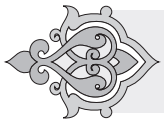

الحديث	رقم الصفحة
أ	
ألا أخبركم بخياركم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الذين إذا رُؤُوا	٥
اللهمَّ إنَّا نستعينك، ونستهديك، ونستغفرُك، ونؤمنُ بك، ونتوكَّل عليك	٥٧
اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ	٥٨
أن تكون بما في يدي اللهِ أوثقَ منك بما في يدَيْك	٥٧
أنْ تَهْجُرَ ما كره ربُّك	٥١
إنَّ مَثَلَ أُمَّتي مثلُ المطر، لا يُدْرى أوَّله خيرٌ أو آخِرُه	٩٠
أن يُسلم قلبُك لله ﷻ، وأن يَسلَم المسلمون من لسانك ويدك	٥٠
إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم صالح الأخلاق	٢٦
خ	
خشية الله في السرِّ والعلانية	٥٧
خير القرون قرني، ثُمَّ الَّذين يلونهم، ثُمَّ الَّذين يلونهم	٨٢
د	
دبَّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ، والبغضاءُ هي الحالقة	٧٣

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
ف	
فإذا رؤوا ذُكِرَ الله	٥٣
ل	
لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثنين وهو غضبان	٧٢
م	
مثل أُمَّتي مثل المطر، لا يُدرى أوَّلُه خيرٌ أو آخرُ	٥
مثل المؤمن ومثل الإيمان، كمثل الفرس في آخِيَّته، يجول ثُمَّ يرجع إلى آخِيَّتِه	٥١
المجاهدُ من جاهد نَفْسَه لله	٤٩
من أحبَّ لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان	٥٧
مَن التمس رضاء اللهِ بسخط الناس، كفاه اللهُ مؤنة الناس	٥٧

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

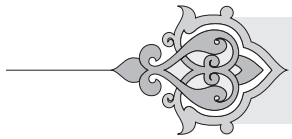

فهرس الموضوعات

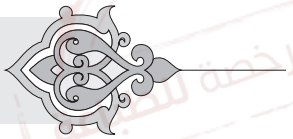

❖ من الدستور الإلٰهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

❖ ١ ـ المودودي المُفَكِّر ١١

خصائص فكر المودودي ١٢

الفكر السائد في الهند عند ظهور المودودي ١٣

١ ـ الفكر التقليدي ١٣

٢ ـ الفِكْر الخُرَافي ١٥

٣ ـ الفكر التابع للغرب ١٩

٤ ـ الفكر التبريري أو الانهزامي ٢٠

٥ ـ الفكر الدفاعي أو الاعتذاري ٢١

٦ ـ فكر منكري السُّنَّة ٢٢

٧ ـ الفكر القادياني ٢٢

ظهور المودودي وفكره ٢٣

غير مرخصة للبيع

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

سمات الفكر المودودي ٢٤
١ ـ الالتزام بالإسلام كلِّ الإسلام ٢٤
٢ ـ المعاصرة ٢٦
٣ ـ المواجهة ٢٧

❖ **٢ ـ المودودي مصلحًا وداعية للتغيير ٣١**

الجانب الحركي في فكر المودودي ٣٣
شرح المطلب الأوَّل ٣٥
شرح المطلب الثاني ٣٧
شرح المطلب الثالث ٤٢
مؤلِّف الكتب والرجال ٤٥
الجانب الربَّاني في حركة المودودي ٤٨
١ ـ الصفات الفرديَّة (جهاد النفس) ٤٩
الهجرة إلى الله ٥٠
دعوة المجتمع إلى الله ٥٢
وصايا وتوجيهات ٥٣
الاتِّصال بالله ٥٤
معنى العلاقة بالله ٥٦
طريقة توطيد العلاقة بالله ٥٨
وسائل تنمية العلاقة بالله ٦٠
مقياس العلاقة بالله ٦١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

إيثار الآخرة على الدنيا ٦٢
أبو الأعلى والعنف ٦٥
❖ **٣ ـ المنتقدون لفكر المودودي وأصنافهم ٦٧**
العلمانيُّون والماركسيُّون عبيد الفكر الغربي ٦٨
المتاجرون بالتصوُّف ٦٩
اختلاف التكوين الثقافي ٧٠
تحاسد المعاصرين ٧٢
الخلاف في الجزئيَّات ٧٥
خلاف بعض الدُّعاة الكبار في بعض قضايا الفِكْر ٧٦
نقد الشيخ أبي الحسن الندوي ٧٧
نقد د. محمَّد عمارة ٧٩
تعقيبٌ مُتمهِّل ٨١
ضمُّ كلامِ المودودي بعضه إلى بعض ٨٣
انتشار الإسلام في العالم ٨٥
كثرة الملوك الصالحين في عصور الملكيَّة الإسلاميَّة ٩١
قضيَّة الحاكميَّة وما أثارته من جدل ٩٢
نطاق التشريع ٩٥
توضيح الأحكام ٩٦
القياس ٩٦
الاستنباط ٩٧

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دائرة التشريع الحرِّ ٩٧
الاجتهاد ٩٧
كيف تصبح للاجتهاد منزلة القانون؟ ٩٩

- **فهرس الآيات القرآنية الكريمة ١٠٣**
- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ١٠٧**
- **فهرس الموضوعات ١٠٩**

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية